

٣٥ مليما

صحن من طراز العائلة الخضراء من عهد كانغ هسى ١٦٦٢ — ١٧٢٢م . المتحف البريطاني .

كيف سُدّت مطالب بريطانيا



كان لابد لغزو أوربا غزوا مقرونا بالنجاح من أن يُبدأ بتحطيم الإنتاج الحربى لألمانيا . وهذه كانت الوظيفة العليا لطائرة لنكستر القاذفة للقنابل. وآل الأمر أخيرا إلى وجوب استخدام قنابل من الكبر بحيث لم يكن فى الطائرات مايستطيع حملها سوى طائرات لنكستر! وطائرة لنكستر من منتجات أكبر هيئة لصنع الطائرات فى العالم.

مجموعة هوكر سِيدْلى

HAWKER SIDDELEY AIRCRAFT CO. LTD., THE GABLES, KENILWORTH, ENGLAND

A. V. ROE & CO. LTD.; HAWKER AIRCRAFT LTD.; GLOSTER AIRCRAFT CO. LTD.; ARMSTRONG SIDDELEY MOTORS LTD.; AIR SERVICE TRAINING LTD.; SIR W. G. ARMSTRONG WHITWORTH AIRCRAFT LTD.

النـــوع ... الذى يتحمل



بعد الغارات الجوية، ما زالت كتدرائية القديس
بولس باقية تتحمل

لا تبين المتانة الحقة لبطانة فيرودو للاحتكاك إلا عندما يكون ضغط الشكائم (الفرامل) على أشده. ففى هذه المنتجات قد أُدخل من صفات الشدة والمقاومة ما هو نتيجة مباشرة لما يقرب من نصف قرن من التجارب والبحث المتواصل فى مشكلة عرقلة السرعة. وهذا هو السبب فى أنك إذا اخترت بطانة فيرودو ضمنت مجالا أوسع للسلامة، ومدة أطول فى الاستهلاك، ونفقات أقل فى العمل. إنما تثبت قيمة الطعام عند تذوقه — فما الذى يمنعك أن تختبر صدق هذه الدعوى عند ما يحل ميعاد تجديد شكائمك؟

FERODO

فيرودو

بطانة الشكيمة والمقبض

FERODO Ltd., Chapel-en-le-Frith, England.

فيرودو ليمتد — شاپل - أن - لى - فريث ، إنكلترة

وكلاء فى جميع أنحاء العالم

REGD. TRADE MARK FERODO

أصرّ على بطانة فيرودو لكفاءة الشكيمة


منعشة
معطرة
مرطبة
مبردة
YARDLEY
Old English Lavender
TALC POWDER



عندما يحين الوقت لتسطير التاريخ الصناعى لعصرنا الحاضر، لن يكون ثمة شك فى أن بعض فصوله سيكون عنوانها «عصر المواد الكيمياوية الصنع»، ولقد مضت سنوات كثيرة وأنابيب الاختبار تلد منتجات حديثة مدهشة، ولكن الحرب هى التى يرجع إليها الفضل فى السمو بهذه المواد الكيمياوية الصنع، من طبقة «التقليد» إلى المستوى الذى أصبحت فيه مقبولة معترفا بها على أنها مواد منتجة بيد الإنسان، ذات كفاءة تامة فى الميدان الذى تستخدم فيه. والذى كلل هذا النجاح بالنصر هو أن كثيرا من المواد الكيمياوية الصنع الحديثة تفوق المواد الأصلية التى حلت محلها. وتفتخر شركة بريتش سيلانيس ليمتد بمواصلتها للإنشاء والتطور فى المنتجات الجديدة للمواد الكيمياوية الصنع. ويتواصل اللجوء إلى عبقرية العلماء الذين يشتغلون لشركة سيلانيس، لايجاد بضائع أساسية فى تقدم الصناعة الحديثة والحياة الاجتماعية.

'Celanese' TRADE MARK

منسوجات
باغات
كيميائيات

British Celanese Limited, Celanese House, Hanover Square, London, W.1.

بريتش سيلانيس ليمتد، سيلانيس هاوس، هنوفر سكوير، لندن W.1.



السجادة السحرية
للعصور الحديثة
MICHELIN
TYRES
مطاط متشلين
شركة مطاط متشلين ، ستوك - أُن - ترنت


أوان
دِكّا



دعائم النجاح — الطيران

لا تكاد توجد طائرة بريطانية تعلو متن الهواء من غير أن يكون لشركة ب. ت. ه. يد فى مساعدتها. فقد ساهمت شركة ب. ت. ه. بنصيب وافر فى إتقان الطيران، من نبضات مقوى الكهرباء المغنطيسية (الشمعة) وشراراتها الأساسية، إلى مصباح تمزدا الصغير. وتشتمل هذه التجهيزات الكهربائية على مفاتيح تسيير الآلات، والمولدات الكهربائية، والمكابس الهوائية. ومقاييس سرعة الآلات، والعجلات التحتية للطائرات، والأجهزة ذات الوظائف الرفرافة، ومحركات مضخات البترول، الخ.

قد ساهمت شركة ب. ت. ه. بكثير مما أدى إلى كفاءة السلاح الجوى فى القتال والدفاع وخاصة فى تطور محرك الطائرة ذات الاندفاع النافورى الذي اخترعه الكومادور الجوى هوتل، وهو العمل الذى بدئ فيه فى مصنع ب. ت. ه. فى رگبى فى عهد يرجع إلى سنة ١٩٣٦. وأول تجربة ناجحة لطيران طائرة مجهزة بهذا المحرك كانت فى مايو سنة ١٩٤١.

الشركة البريطانية تومسون.هوستون لمتد،
رگبى، إنكلترة.

BTH RUGBY

THE BRITISH THOMSON-HOUSTON COMPANY LIMITED, RUGBY, ENGLAND

الأدب والفن

المحتويات

يسر إدارة التحرير أن يوافيها القراء بمقالات لنشرها. وقرار هيئة التحرير فيما يتعلق بقبول هذه المقالات قرار نهائى. وستعاد المقالات لأصحابها فى حالة ما إذا قاموا مقدما بدفع تكاليف البريد. وعنوان رئيس التحرير :—

The Editor "Literature & Art"

خواطر في الأدب العربي - ٢

نشأة الإنشاء الأدبي

بقلم الأستاذ هـ. ا. ر. جب

الأدب، كما هو معروف لكل إنسان، كلمة اصطلاحية تدل على إنتاج إنشائى من طراز خاص باللغة العربية؛ غير أن الكتابات التى تندرج تحت هذه الكلمة تتنوع تنوعا كبيرا فى موضوعاتها، وأساليبها، وأغراضها، بحيث يصعب أن نجد عبارة تشملها جميعا. ويترجم الكتاب الأوربيون عادة كلمة أدب، بهذا المعنى، بالعبارة "belles-lettres" أو الأدب الجميل، أو الكتابة الرفيعة، وهى عبارة تكاد تكون فى صعوبة اللفظ العربى تحديدا. ولأيسر لنا أن نعرف الأدب تعريفا سلبيا فنحدد ما لا يدخل تحته، بأن نميزه من الكتابات التى فى فقه اللغة، والفلسفة، والتاريخ، والجغرافية، وما إلى ذلك؛ على أننا سنرى أن الخط الفاصل بينه وبينها ليس واضحا بحال من الأحوال.

ولعل أقرب تعريف يتسنى لنا وضعه هو أن نقول إن كتابا فى الأدب هو كتاب يكتبه مؤلفه وهو يشعر بغرض أدبى أو إنشائى، سواء أكان يعالج موضوعا فى فقه اللغة، أو التاريخ، أو الأخلاق، أو التسلية المحضة. فالكاتب فى فقه اللغة أو التاريخ مثلا يرمى فى كتابته إلى هدف واحد هو تزويد القارئ بمعلومات أو تنظيم بعض الحقائق وتبويبها لتزود القارئ بمعلومات، على حين أن كاتب الأدب يدخل فى موضوعه، أيا كان ذلك الموضوع، عنصر الخيال أو الابتكار بما يضفى عليه ثوب الجمال أو الفن فيجعله سائغا شائقا للقراء الذين يشاكلونه فى ميولهم وأذواقهم العقلية. ويحدث هذا طبعا بدرجات مختلفة فى مستوياتها، من حاسة

الجمال المرهفة المثقفة التى تتميز بها الدوائر الأدبية الواسعة الاطلاع إلى الفجاجة والفظاظة التى تتمثل فى دهماء الشوارع . فسنجد عناصر من جميع هذه المستويات ممثلة فى الانشاء الأدبى؛ وإنه من أجل ذلك كانت تلك الكتابة الأدبية، إذا فهمت فهما صحيحا، هى المصدر الذى نجد فيه أصدق صورة للمجتمع الاسلامى، فى القرنين التاسع والعاشر، ذلك المجتمع الذى كان مدهشا فى حيويته، وبحثه، وقوته، وتشعب نواحيه .

ومن الطبيعى أن يكون أول موضوع نبحثه — مهما يكن بحثنا له موجزا — هو كيفية نشأة هذا الضرب من الانشاء فى اللغة العربية والعصر الذى استحدث فيه، وأنا أرمى إلى تناول هذا البحث فى هذه المقالة . ولا يجوز لنا أن نفترض بادىء ذى بدء أن لفظ الأدب كان له دائما هذا المعنى الاصطلاحى، إذ أن مثل هذا التصور الانشائى المتمايز لم يكن من الممكن أن ينشأ إلا فى مجتمع يدرك فى كتابته الأدبية مستويات وأساليب خاصة . على أن الفحص عن تاريخ الكلمة نفسها قد يسفر لنا عن بعض النواحى المفيدة .

ويظهر أن العبارات الأولى التى استعمل فيها هذا اللفظ تدل على أن عرب شبه الجزيرة كانوا يفهمون من الأدب «ما تلقيته أو اكتسبته عن التعليم أو القدوة »، وعلى الأخص «الآداب »، لا من حيث هى سلوك خارجى بحت، بل بالأحرى من حيث هى دليل على نوع من الأخلاق . فمن ذلك ما يقول الشاعر، أعشى ميمون :

«جروا على أدب منى بلا نزق »،

وفى حديث مشهور يروى عن عمر بن الخطاب أنه يقول : «طفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار » . وفى نفس هذا المجال من الأفكار يستعمل لفظ التأديب بمعنى التعليم كتعليم الأولاد مثلا، وإن لم يكن المعنى مقصورا على الأولاد، كما يتضح من حديث مشهور آخر هو : «أدبنى ربى فأحسن تأديبى» .

وظل للأدب هذا المجال المعنوى فى عهد الدولة الأموية . ومن أمثلة ذلك ما قاله الحجاج فى خطبته المشهورة فى الكوفة : «أسلّم عليكم أمير المؤمنين فلم تردوا عليه شيئا ! هذا أدب ابن نهية، أما والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب»؛ وكذلك ما كتبه عبد الحميد الكاتب فى رسالته إلى عبد الله بن مروان سنة ١٢٧ هـ . حيث يقول : «أحب (أمير المؤمنين) أن يعهد إليك . . . عهدا يحملك فيه أدبه، ويشرع لك عظته» .

من أجل ذلك، إذا كان لنا أن نعتبر الأدب اصطلاحا إنشائيا على أية صورة حتى نهاية العصر الأموى، كان اللفظ ينطبق ليس على الصفة الانشائية بل على محتويات رسائل من طراز رسالة عبد الحميد الكاتب . أى أننا نجد رسائل وعظية تشتمل على إرشادات أخلاقية وعملية بأقلام كتاب كانت الكتابة مهنتهم . غير أن رسائل الكتاب هذه لا بد أن تكون بالطبع قد نسجت على منوال ما من الأساليب الأدبية . فلا يمكن أن تكون مبتكرة ابتكارا سواء فى وظيفتها أو صورتها، بل لا بد أن تكون مرتبطة ببعض الأساليب والصور السابقة للكلام، إن لم يكن للكتابة .

ويبدو أن الأدلة التى يمكن الوصول إليها تجمع على أن البلاغة هى المصدر الذى استقت منها هذه الرسائل الالهام . وليس ثمة شك فى أن استخدام البلاغة يرجع إلى ما قبل الاسلام، وإن كانت بعض الأمثلة التى تساق أحيانا على ما يسمى بلاغة جاهلية لا يمكن اعتبارها أصلية دون أن تخيم عليها الشكوك القوية . والرأى الذى ينادى أحيانا بأنه كان فى عصر الجاهلية إنشاء بلاغى مكتوب فى بلاد العرب رأى لا يقبله إلا عدد قليل من العلماء (إن كان فيهم من يقبله)، رأى بطبيعته بعيد الاحتمال . بل إن البلاغة باعتبارها فنا مدروسا، أى التحليل العلمى للوسائل والأساليب البلاغية، ليست من علوم العصر الجاهلى؛ وإنما هى دراسة علمية متأخرة فى نشأتها، وتقابل علم البديع . على أنه لا شك فى أنه كان هناك فى كل من العصر الجاهلى وعصر صدر الاسلام بعض

مخطوطة نادرة المثال عليها توقيع جامى تاريخها سنة ٨٩٠ هـ .

الخصائص والأساليب البلاغية المتعارف عليها؛ ومن الميسور كل اليسر أن نحصل على فكرة عن مزاياها العامة من مصادر متعددة، ولا سيما القرآن الكريم، وعلى الأخص السور المكية الأولى، ومن النماذج التى وصلت إلينا من القرن الأول للهجرة .

ويمكننا أن نلخص الخصائص العامة لهذا الأسلوب البلاغى فيما يلى : (١) إثارة خيال السامع باستعمال المجازات القوية؛ (٢) السيطرة على وجدان السامع وعواطفه وميله إلى الموسيقى الصوتية باستعمال الألفاظ الطنانة البالغة التأثير؛ (٣) التحدث إلى عقل السامع، لا عن طريق الدقة فى التعبير فحسب، بل كذلك عن طريق ترصيص التعبيرات والمجازات ومزجها بعضها ببعض؛ (٤) تفريع الصور العقلية والمعانى وتنويعها باستخدام الازدواج فى الفواصل استخداما قد يزيده قوة استعمال السجع أو ما يشبه السجع من الفواصل . غير أن التزام السجع

فى الكلام كان متجنبا، إما لأنه كان يشعر بشىء من التكلف، و إما لأن التقفية كانت ميزة خاصة بالشعر، وسجع الكهان وما أشبه ذلك من الانتاج الأدبى .

ونجد فى خطبة الحجاج، التى سبق اقتباسها، مثالا من أحسن الأمثلة . ولتلاحظ على الخصوص أنه، بينما يتجنب السجع، يستخدم التلميحات الشعرية والاقتباسات ويكثر من استعمال المجاز، كما نرى فى الجملة الآتية مثلا :

«إنى، والله يأهل العراق، ما يقعقع لى بالشنان، ولا يغمز جانبى كتغماز التين ؛ ولقد فررت عن ذكاء، وفتشت عن تجربة؛ وإن أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه — نثر كنانته بين يديه، فعجم عيدانها، فوجدنى أمرها عودا، وأصلبها مكسرا، فرماكم بى، لأنكم طالما أوضعتم فى الفتنة، واضطجعتم فى مراقد الضلال . . . »

ولتقارن الآن بين تلك الجملة والجمل الآتية من رسالة عبد الحميد الكاتب : «واعلم أن كل أعدائك لك عدو يحاول هلكتك، ويعترض غفلتك، لأنها خدع إبليس، وحبائل مكره، ومصايد مكيدته؛ فاحذرها مجانبا، وتوقها محترسا منها، واستعذ بالله من شرها، وجاهدها إذا تناصرت عليك بعزم صادق لا ونية فيه، وحزم نافذ لا مثنوية لرأيك بعد إصداره عليك، وصدق غالب لا مطمع فى تكذيبه، ومضاءة صارمة لا أناة معها، ونية صحيحة لا خلجة شك فيها . . . » فمن المؤكد أن ليس ثمة صعوبة فى أن ندرك أن فى القطعة السابقة نفس الخصائص الأساسية التى فى خطبة الحجاج، ولكنها ذللتها وعبدتها الطلاقة التى يمتاز بها الكاتب المحترف للكتابة — وهى فى الحقيقة تلك الصفة التى وصف بها مؤلف كتاب «الفهرست» عبد الحميد حينما قال : «هو الذى سهل سبيل البلاغة فى الرسل . »

بيد أنه ما دام لفظ الأدب كان يؤدى هذا المعنى العام للتعليم وما يكتسب من التعليم، لم يكن من الغريب قط أن نجده مستعملا فى بعض

الدوائر الخاصة بمعنى مقيد محصور فى معان خاصة تهم هذه الدوائر. فمثلا يبدو أنه بين السابقين من العلماء المشتغلين باللغة العربية، كانت دراسة اللغة وتقسيم مميزاتهـا تسمى أدبا. ولست واقفا على كثير من الأمثلة التى وصلت إلينا عن هذا الاستعمال، ولكن هذا الاستعمال صريح فى رسالة مبكرة تسمى «الأدب الصغير»، وهى كثيرا ما تنسب إلى ابن المقفع، ولكنها ربما كانت من نتاج عصر متأخر بعض الشئ عن عصر ابن المقفع. وإليكم المثال الذى أعنيه من تلك الرسالة: «جل الأدب بالمنطق، وكل المنطق بالتعلم، ليس حرف من حروف معجمه، ولا اسم من أنواع أسمائه، إلا وهو مروى متعلم مأخوذ من إمام سابق، من كلام أو كتاب.»

ومثل هذا الاستعمال الخاص للفظ الأدب هو ما نجده فى عنوان الرسالة التى اقتبست منها العبارة السابقة — «الأدب الصغير» — وفى عنوان رسالة أخرى أكثر شهرة، لابن المقفع، هى «كتاب الأدب الكبير». على أننا، قبل محاولة تحديد المعنى الخاص للفظ الأدب فى هذين المثالين، يجب علينا أن ننتقل إلى البحث فى التطورات الجديدة فى الانشاء العربى — تلك التطورات التى يرتبط بها اسم ابن المقفع، والتى يعد هو فى الحقيقة أول ممثل لها، بحسب ما وصلت إليه معلوماتنا.

وأنا فى غنى عن تذكير قرائى بما حدث فى النصف الأول للقرن الثانى للهجرة، من أن الحياة الاجتماعية والعقلية للعرب، وخاصة حياة العرب فى العراق، كان يعتورها التغيير فى كل ناحية من نواحيها. فسياسة الشدة التى كان يتبعهـا حكام الدولة الأموية كانت، بقضائها على الروح الحربى لأهل القبائل، قد مهدت السبيل إلى الانقلاب بتأسيس حياة مستقرة ونمو جماعة متحضرة، تشتغل بأعمال سلمية، وتعنى فى طبقاتها العليا بالبحوث العقلية. ولم يجد مثل هذا المجتمع فى الأفكار القديمة وأساليب التعبير السابقة ما كان يجده فيها من القوة والسلطان

عرب الأجيال السابقة . فقد أصبح هذا المجتمع يبحث عن مواد جديدة وصور للتعبير جديدة، تكون أكثر ملاءمة لأحواله الجديدة وما فيها من مجالات عقلية أبعد شأوا . وقد زاد هذه الميول قوة زيادة امتزاج العناصر الفارسية والآرامية وغيرها بالحياة العربية، الاجتماعية والأدبية . والواقع أن الأدب العربى كان يدنو من عصر انتقالى شبيه بتلك العصور الانتقالية التى مرت بها أمم أخرى فى مراحلها الأدبية الأولى . وحتى لو ظلت الخلافة الأموية تحكم الامبراطورية العربية من دمشق، لكان من الميسور أن نتنبأ بأن هذا التطور الاجتماعى فى العراق كان من شأنه أن يستحدث عدة تغيرات . غير أن قيام الخلافة العباسية منح الحركة نشاطا قويا وعجل تطورها، لأنه جلب معه تحولا نهائيا فى النفوذ السياسى والاجتماعى من عناصر الحياة البدوية إلى عناصر الحياة الحضرية .

وقد سلك ممثلو التيارات الجديدة للتفكير العربى، فى تلك الظروف، نفس المسلك، كما انتحلوا نفس الخطى، التى سلكتها وانتحلتها من قبلهم ومن بعدهم الأمم التى اجتازت مثل تلك الظروف . فكما أن الأدب المسرحى الرومانى قام على أسس المسرحيات الهزلية الاغريقية، وكما أن كتاب الأدب الأوربيين فى القرون الوسطى ترجموا أو استعاروا من كتب العرب، كذلك كان الشأن مع الكتاب المحدثين فى اللغة العربية : سدوا حاجتهم فى أول الأمر بالاستعارة أو الترجمة من الآداب السابقة . على أنه كان هناك أيضا، فى الوقت الذى بدأ فيه هذا الأدب النثرى المكتوب، أدب شفوى ذو كمية عظيمة وصبغة مخالفة كل المخالفة للصبغة الكتابية — أدب كان بالتدريج ينتظم ويتبوب، كما أنه بعد تشكل الأدب الكتابى بشكل مستقر تدفق ذلك الأدب الشفوى وازدهر بكمية شاسعة وصور متنوعة .

ومن الطبيعى أن مجرى الترجمة إلى اللغة العربية كان يرجع إلى شخصية المترجمين وإلى الكتب والوسائل التى كانت فى متناول أيديهم . لذلك كان من الطبيعى أن ابن المقفع، وهو فارسى الأصل (وكان يسمى فى الأصل روزبه بن دادويه)، ترجم كتبا فارسية قديمة . على أنه إن كان

أول من أفسح مجال الأدب العربى بالترجمة من الآداب القديمة، فليس من الجائز أن نظن أنه فعل ذلك تلبية لرغبة عامة . فسترى أن تلك الرغبة العامة إنما نشأت بعد ذلك بقليل . و إنما كان ابن المقفع، كعبد الحميد الكاتب، من كتاب الدواوين ، وكان فى خدمة أمراء من بنى العباس، عيسى بن على وسليمان بن على . وكل ما ترجمه من الكتب — أى «كتاب كليلة ودمنة» و«سير ملوك العجم»، (وهذا كان ترجمة للكتاب الفارسى «خداى نامه» أو كتاب الملوك)، وكتاب «الآئينات» أو كتب الآداب والطقوس الرسمية — كل ذلك يرجع إلى أدب البلاط الملكى للدولة الساسانية، وكانت ترجمتها مقصودة لتؤدى فى بلاط بنى العباس غرضا شبيها بغرضها الأصلى . وينطبق هذا أيضا على كتابه الآخر الذى ليس ترجمة بل هو تأليف أصلى، وهو «كتاب الأدب» (الذى غلب عليه فيما بعد اسم «الأدب الكبير» أو «الدرة اليتيمة» تمييزا له من كتاب متأخر عنه ينسب إلى ابن المقفع ويسمى «الأدب الصغير») . فهذا الكتاب كذلك مؤلف فى آداب الأمراء وحاشيتهم، قد صيغ فى قالب نصائح فى السلوك وما إليه .

ويسهل علينا من هذا أن نستنتج ما كان يفهمه ابن المقفع من لفظ الأدب . وإذا سلمنا بأن ابن المقفع كان أول مؤلف للانشاء الأدبى فى اللغة العربية — وأرى من الحق أن نسلم بأنه كان — وجب علينا ألا نغفل عن أن جميع أدبه كان، كالأدب الذى سبقه، يرمى إلى غرض تهذيبى. ولو أنه اقتصر فيما كتب على «الأدب الكبير» لما كان فى كتابته شىء كثير يميزه عن سابقيه من كتاب المواعظ والوصايا المتعلقة بالآداب وحسن السلوك . أما ما كان جديدا فى مؤلفاته فهو أن كتبه المترجمة قد أعربت عن هذه المواعظ والوصايا بطريق غير مباشر فى صورة تاريخ أو خرافة على ألسنة الحيوانات . و«كتاب الملوك» فى نصه الفارسى لم يكن كتابا تاريخيا بقدر ما كان رسالة بلاغية فى آداب الملوك،

نسيجها سداه الأقاصيص ولحمته التاريخ . (ولو أن اللاحقين من مؤرخى العرب والفرس كانوا قد أدركوا هذه الحقيقة لتجنبوا كثيرا من الجهود المضيعة والآراء الجامحة !) أما فى «كليلة ودمنة» فقد كان عنصر الوعظ معسول اللفظ بما صيغ فيه مستورا على ألسنة الحيوانات، بحيث يسوغ لنا أن نعتبره أول خطوة فى سبيل نقل الأدب من الرسائل الوعظية أو التدريبات اللغوية إلى الأدب الجميل أو الكتابة الرفيعة ذات التسلية السامية .

وليس مما يدخل فى موضوعنا الحاضر أن نتعرض للاراء الالحادية التى تعزى إلى ابن المقفع، والتى أعدم من أجلها سنة ١٣٩ هـ . غير أنه يجدر بنا قبل الانتقال إلى البحث، فى مقالة تالية، فيما طرأ على الانشاء الأدبى من التطور، أن نتمعن قليلا فى موضوعين آخرين يتصلان بكتاباته ويرتبطان ارتباطا وثيقا بمادة بحثنا : وهما أسلوبه، والصورة التى انتقلت فيها مؤلفاته إلى الأجيال التى تلته .

ومن المحقق أن عمل ابن المقفع لم يكن قط ترجمة حرفية . فقد لاحظ الأستاذ گبريلى (Gabrieli) — الذى ندين لدراسته العميقة عن ابن المقفع باصلاح كثير من الأخطاء القديمة — أن جميع نصوص كتاب «كليلة ودمنة» تنم بوضوح عن جهد بذله المترجم فى تحوير الخصائص الهندية الصميمة التى للكتاب الأصلى «پنتشا تنترا» ليجعله ملائما لذوق المجتمع الاسلامى، ولكن من غير أن يصبه فى قالب إسلامى بحت . كذلك أضيفت إلى الكتاب فصول جديدة فى مواضع مختلفة كما أن المقدمة تناولها التعديل، ولو أن من الممكن أن بعض هذه التعديلات كان موجودا من قبل فى النصوص الفارسية . ومهما يكن الأمر فان ابن المقفع شعر بأنه حر فى اصطناع المواد التى فى الكتاب على وفق أسلوبه هو، دون أن يلتزم أسلوب النص الفارسى . وفى حدود ما يجوز لنا الاستدلال به من العبارات التى وصلت إلينا مقتبسة من مؤلفه «كتاب التاج»، نستطيع القول بأنه اتبع نفس الطريقة فى ترجمة ذلك الكتاب أيضا؛ أما فى كتابه «سير

ملوك العجم » فمن المرجح أنه كان أكثر التزاما فى ترجمته للنص الأصلى «خداى نامه » .

على أننا حين ننظر فى الأسلوب الانشائى، ذلك الأسلوب الذى اشتهر به ابن المقفع تلك الشهرة الواسعة، والذى سن سنة جديدة لمن جاء فيما بعد من كتاب الأدب، يروعنا أن نجد من المستحيل أن نبدى رأيا قاطعا بالاستناد إلى نص كتاب «كليلة ودمنة » . فجميع المخطوطات التى وصلت إلى أيدينا من هذا الكتاب ترجع إلى عهد متأخر بعض الشىء، فأقدمها يرجع إلى القرن السابع أو الثامن الهجرى، وهى كلها شديدة الاختلاف بعضها عن بعض . بل إن من العسير غالبا التحقق من ترتيب فصول الكتاب بمضاهاة المخطوطات المختلفة، ومما لا سبيل إليه البتة أن تساعدنا هذه المخطوطات فى إعادة تكوين العبارات العربية الأصلية التى استعملها ابن المقفع . ويؤيد هذا أن الاقتباسات المأخوذة عن «كليلة ودمنة » والتى نجدها حتى فى الكتب العربية المكتوبة فى القرن الثالث تدل على أن النص كان قد لحقه تحريف بالغ فى ذلك القرن؛ ويقرر المؤرخ حمزة الأصفهانى أن مثل ذلك التحريف أصاب النسخ الأولى لكتاب « سير ملوك العجم » .

ومع ذلك يكاد لا يكون هناك شك فى أن ابن المقفع كتب فعلا ترجماته على رق أو بردى . فلماذا حدث أنه بعد ذلك بقليل وجد ذلك العدد الكبير من النصوص المتباينة؟ هذه مسألة عويصة، وليس من الميسور بعد أن نحلها حلا مرضيا . وربما كان من عادة النساخ أن يخولوا أنفسهم حرية التغيير والمراجعة فى النصوص على مثال ما كان يفعل تلامذة علماء اللغة عند نشرهم كتب أساتذتهم، كما أوضحناه فى مقالة سابقة . ومهما يكن الأمر فمن الجلى أن النصوص الأصلية التى سطرها ابن المقفع لا بد أن تكون قد اختفت من التداول منذ عهد مبكر، قبل أن تنتشر انتشارا كبيرا فى عدد من النسخ .

فاذا انتقلنا إلى « كتاب الأدب » انتقلنا إلى أساس أوطد : فليس له

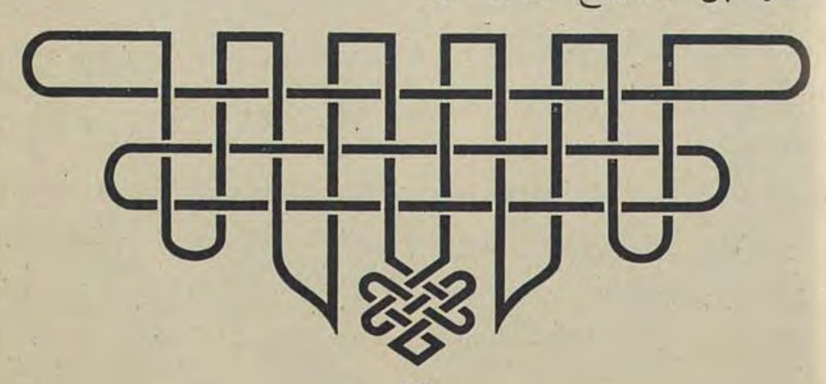
إلا نص واحد كامل، فيه اختلافات طفيفة، وهذا النص تؤيده الاقتباسات الواردة فى كتب أخرى متقدمة التاريخ . ومن ثم كان من الممكن أن نقف على خصائص الأسلوب الانشائى لابن المقفع، من نص هذا الكتاب، بصورة أدق كثيرا مما يتسنى لنا من النصوص التى وصلتنا لكتاب «كليلة ودمنة» .

ومع أن ابن المقفع كان فارسى المولد، إنه يرأس ثبت العشرة الذين يعدون بلغاء الناس — وهو غير ثبت البلغاء — كما ذكره مؤلف كتاب «الفهرست »، وكان دائما معدودا من أساطين الفصاحة العربية . على أن هناك فوارق واضحة بين أسلوبه وأسلوب من قبله من الخطباء . فلغته وتركيب جمله كلاهما أدنى إلى البساطة، وأسلوبه أكثر مباشرة واستقامة وأقل تلميحا وإشارة، والالتجاء إلى ما فى القارئ من القوة الخيالية والمقدرة اللغوية يصل فى كتابته إلى ما يقرب من العدم، كما أن ازدواج الفواصل يكاد لا يكون له وجود . وبدلا من التصوير اللفظى القوى والألفاظ الطنانة، يعتمد ابن المقفع فى استحداث روعة أسلوبه على استخدام العبارات المصقولة الجلية (التى ما زالت تشتمل على قدر من معناها المهجور)، غير أنه يعانى فى بعض الأحيان شيئا من الصعوبة فى العثور على العبارة الدقيقة التى تؤدى المعنى الذى يقصده وبذلك يصبح غامضا نتيجة التساهل فى التعبير .

فانه على الرغم من أن ابن المقفع كان يبنى على الأساس الذى وضعه الكتاب، لم يكن أسلوب النثر العربى قد تطور بعد تطورا كاملا، وحينما كان يعالج موضوعات جديدة ويعبر عن المعانى المجردة التى لم يكن لها بعد اصطلاحات ثابتة فى اللغة المتداولة كان مضطرا إلى ابتكار ألفاظ ومصطلحات من عنده لتؤدى تلك المعانى، على مثال ما يفعل كثير من كتابنا المعاصرين إذ يحاولون التعبير عن الأفكار الحديثة باستخدام تراكيب جديدة . ويدل تاريخ جميع الآداب على أن ابتكار أسلوب نثرى متصرف

قوى التعبير أصعب كثيرا من ابتكار أسلوب شعرى، وأن الأول يحتاج إلى وقت طويل من التطور والممارسة فى الانشاء .

وقد سبق أن رأينا، فى مقال سالف، أنه فى ذلك العهد لم يكن من المألوف تقييد الكتب بالكتابة . ومع أنه يجوز لنا أن نفترض بشىء من الطمأنينة أن ابن المقفع كان فى الواقع قد سطر كتبه، بالمعنى المفهوم عادة من تقييد الكتب بالكتابة، إن تاريخ نصوصها المختلفة يدل على أن فكرة الكتب ذات النصوص والمحتويات المقيدة — مما يصح أن نسميه الحقوق الأدبية للمؤلف — لم تكن بعد مألوفة . ولا يجوز لنا أن ننخدع بما كتبه ابن المقفع نفسه، فى مقدمة « كتاب الأدب » متحدثا عن الكتب بقوله مثلا : « وجدنا الناس قبلنا . . . كتبوا الكتب الباقية »، إذ أن من الواضح أنه يشير هنا إلى كتب الفرس ولعله كان يشير أيضا إلى كتب الاغريق . والحق أن أغرب التطورات التى كان لها مساس بكتب ابن المقفع نفسه هو أن نصا شعريا لكتاب «كليلة ودمنة » نظم من بحر الرجز لغرض تداوله بين الجماهير . وكان مؤلف هذا النص هو أبان بن عبد الحميد اللاحقى (المتوفى سنة ٢٠٠ هـ .)، الذى نظم كذلك كتبا أخرى مترجمة عن الفارسية . وليس ثمة دليل أسطع من هذا على إيضاح الدرجة التى كان ينظر بها إلى الأدب فى الدوائر العربية باعتباره شعرا أكثر منه نثرا، وعلى أنه كانت ما تزال هناك مرحلة لا بد للأدب العربى من قطعها قبل أن يترسخ نثره ويستقر .

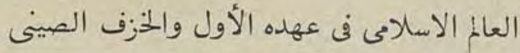


العالم الاسلامى فى عهده الأول والخزف الصينى

بقلم الدكتور ر. ب. سرجنت

بلاد الصين هى أعظم بلاد العالم أجمع شهرة بخزفها وأوانيها الصينية، وهى شهرة لن يجادل فيها أحد؛ وكل من اللغة العربية والانكليزية، بله اللغات الأخرى، تستعمل كلمة «الصينى» علما على نوع خاص من الخزف، وكلمة «صينى» دخلت اللغة العربية فى عهد مبكر. وقد فتنت إنكلترة فى القرن الثامن عشر بالتحف الصينية، ومن المحقق أن الدكتور جونسون — الكاتب والناقد الانكليزى الكبير فى القرن الثامن عشر — شرب كثيرا من أقداح الشاى فى أوان مصنوعة فى كانتون عملت خاصة للسوق الأوربية، غير أن انتشار السلع الصينية فى العالم الاسلامى يرجع إلى عهد سابق لذلك العهد بطويل من الزمن. و إذا أردنا الوقوف على ميل ذوى الثقافة والأناقة إلى الصين ومنتجاتها من التحف وآنية الترف التى كانت تصدرها إلى البلاد الغربية فى القرون الوسطى، لم نكد نجد شيئا أفضل من أن نقتبس فقرة من الكتاب اللطيف الذى ألفه الثعالبى بعنوان « لطائف المعارف »، تلخص لنا ما كان معروفا يومئذ عن الحذق الصينى فى الفنون :

«كانت العرب تقول لكل طرفة من الأوانى وما أشبهها صينية، كائنة ما كانت، لاختصاص الصين بالطرائف؛ وقد بقى هذا الاسم إلى الآن على هذه الصوانى المعروفة. وأهل الصين قديما وحديثا مخصوصون بصناعة اليد، والحذق فى عمل الطرف والملح؛ يقولون أهل الدنيا ما عدانا عمى، إلا أهل بابل فانهم عور، ولهم الاغراب فى خرط التماثيل، والابداع فى عمل النقوش والتصاوير، حتى إن مصورهم يصور الانسان ولا يغادر شيئا إلا الروح ثم لا يرضى بذلك حتى يصوره ضاحكا، ثم لا يرضى بذلك



المعبد الأكبر بكانتون. وكانت مركزا لتجارة عربية عظيمة فى العصر العباسى.

حتى يفصل بين ضحك الشامت وضحك الخجل، وبين المتبسم والمستغرب، وبين ضحك المسرور وضحك الهازئ، فيركب صورة فى صورة، وصورة فى صورة. ولهم الغضائر المستشفة يطبخ فيها الطبيخ فتكون الواحدة منها قدرا مرة، ومقلى تارة، وقصعة أخرى؛ وخيرها المشمشى الرقيق، الصافى، الشديد الطنين، ثم الزبدى على هذا الوصف.»

وبحلول القرن التاسع الميلادى كان الخزف الصينى سلعة تجارية تصدر للخارج فى جهات عدة. وقد كشف التنقيب عن عدد كبير من حطام تلك الأوانى فى سامرا (سر من رأى)، ويمكن تحديد تاريخها بالضبط، إذ أن الجهات التى وجدت فيها لم تسكن إلا فى حقبة طولها خمسون سنة؛ ومن بين تلك الأوانى نوع سلادون الشهير ذو اللون الأخضر. والخزف الصينى الذى عثر عليه فى سامرا والذى عثر عليه فى قلعة الفسطاط بمصر القديمة يمكن اعتباره من الخزف الصينى المنزلى الذى كان مستعملا

عادة فى ذلك العهد، ولكننا لا نعرف الآن التاريخ المضبوط الذى بدأ فيه تصدير الأدوات الصينية إلى الشرق الأدنى . أما الحرائر فقد كانت طبعا ترسل إلى شعوب البحر المتوسط منذ قرون قبل الاسلام مجتازة طرق القوافل لآسيا الوسطى، ولا شك أن بعضها كان يرسل بطريق البحر أيضا.

ولم يعرف لنا بعد أكان الخزف الصينى يصل إلى البلاد الاسلامية عن طريق البر بكميات يعتد بها . فليس الخزف من السلع التجارية التى يتيسر نقلها عن طريق البر، بسبب ثقله، وهشوشته، وما يستلزمه من ضخامة حزمه لضمان سلامته، بخلاف الحرير وغيره من المنسوجات الأخرى فانه يسهل نقلها بالقوافل . على أنك قد تقرأ فى تاريخ العصور الاسلامية الأولى أن على بن عيسى، عندما كان فى خراسان، أرسل إلى الخليفة هرون الرشيد هدية مؤلفة من عدد كبير من الطرف والتحف، وكان من بينها منسوجات رومية، وعشرون قطعة من الفغفورى الصينى، ولعلها كانت من الأوانى المصنوعة فى مصنع الدولة، مؤلفة من طاسات، وفناجين، ونيم كاسه (كئوس نصفية)، مما لم تقع العين على مثله فى بغداد قبل ذلك، بله ۲۰۰۰ من القطع الأخرى . ويخيل إلينا أن هذه الأوانى ربما كانت قد جاءت بطريق البر من آسيا الوسطى . وفى فقرة أخرى—

وجوه تشرق بالغبطة والحبور على صينى كمنغ .

حاكم صينى يبتسم. دمية بديعة مصنوعة من صينى كمنغ.

فى كتاب الطبرى – يقتبسها الدكتور زكى محمد حسن، مدرس الآثار الاسلامية بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول، فى رسالته «الصين وفنون الاسلام»، نرى فيها ذكر الأوانى الصينية المنقوشة المذهبة فى كش،(۱) التى ترجع إلى سنة ۷۰۱م. وربما كانت هذه الفقرة الشائقة تشير إلى نوع من الأوانى الصينية ذى طلاء معدنى، ويظهر كذلك أنها تتضمن أن تلك الأوانى كانت قد وصلت بطريق البر، وإن كان من الممكن طبعا أنها استوردت بطريق البحر إلى سيراف أو ميناء آخر على الخليج الفارسى، ثم نقلت من هناك بطريق البر خلال بلاد العجم إلى كش.

أما الدلائل الايجابية على المتاجرة بالخزف عن طريق البحر فوفيرة، ومن الممكن التسليم بأن السواد الأعظم من تلك التجارة كان عن الطريق البحرى.

وكان المركز الرئيسى لتجارة الصادرات فى الصين هو مدينة كانتون بجاليتها من التجار المسلمين الذين كانت طائفتهم ذات قدم راسخة واستقلال ذاتى هناك، وكانوا فى معظمهم من الفرس أو العرب. وأول كاتب يصف لنا تجارة كانتون هو سليمان التاجر، على أنه يعلق على ذلك بأن تجارة الصين لا تصل إلى بغداد والبصرة إلا بكميات صغيرة، بسبب كثرة الحرائق التى تشتعل فى كانتون – البندر التجارى الذى تجتمع فيه البضائع الصينية والعربية – إذ أن المنازل كانت مبنية من الخشب والغاب المشقوق، فكانت بذلك سريعة الاشتعال! ويظهر أن هذه عبارة

(۱) بلدة فى جرجان. [المترجم.]

غريبة جدا، غير أن سليان يذكر أسبابا أخرى أرجح من ذلك فى تعليل ندرة البضائع الصينية — كتحطم السفن، وغارات لصوص البحر الذين قد يقع التجار فريسة فى أيديهم فى أثناء الطريق، وبقاء السفن مددا طويلة فى الموانى التى تمر بها، مما لا شك فى أنه كان ضروريا لترميم السفن. وكانت هذه الوقفات تضطر التجار إلى بيع سلعهم قبل الوصول بها إلى محط رحالهم فى البلاد العربية، لكى يسدوا نفقاتهم ويدفعوا نفقات الرحلة . ويضيف سليان إلى ذلك أن الريح كانت تهب أحيانا فترسل بالسفن إلى بلاد اليمن أو غيرها من البقاع وهناك كانت تباع البضائع . على أن أبا زيد السيرافى، بعد عهد سليان بقليل، يتحدث عن العدد الكبير من التجار الذين كانوا يرتادون الطريق من بغداد إلى الهند والصين؛ وبعد نحو مائتى سنة، أى فى النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى، يخبرنا المروزى أن معظم التجار الذين يسافرون إلى كانتون يبحرون فى سفنهم، الفرس من سيراف، والعرب من البصرة .

وقد شهد كثير من المؤلفين بأن كميات كبيرة من البضائع الصينية — لم يكن الخزف جزءا قليل الأهمية بينهـا — كانت ترد إلى الساحل الجنوبى لبلاد العرب . فهذا بزرگ بن شهريار، أحد الرحالة الأسبقين، يتحدث عن تاجر يهودى يجلب تجارته من الأدوات الصينية إلى عمان، وكان من بينها الخزف الصينى. وفى سنة ٣٦٦ هـ . كان ابن زياد يفرض فى عدن ضرائب على الواردات البحرية من الهند، وكان من السلع العاديـة الصينى (أى الخزف المصنوع فى الصين)؛ ويذكر المقدسى أن مدينة عدن كانت مضرب الأمثال فى شهرتها بالأدوات الصينية .

ويشاهد المسافر على طول الساحل الجنوبى لشبه الجزيرة العربية عددا متناثرا من البقاع المهجورة للمدن والقرى البائدة، التى يرجع تاريخ بعضها إلى العصر الحميرى والسبئى. ويمكن الانسان أن يلتقط من هذه البقاع كثيرا من قطع الآنية الخضراء الفاخرة، وقد عثرت فى إحدى هذه البقاع، فى قرية بائدة على الطريق العام بين عدن واليمن



خمسة أطباق من الخزف محلاة بزخارف من عهد العائلة الوردية .



نماذج بديعة للخزف الصينى القديم .

على بعد بضعة أميال إلى الشمال من لحج عاصمة العبدليين ، على قطع من الصينى الأخضر اللون مع قطعة نقد إسلامية من النحاس تتصل بصدر عصر المماليك . ويستدل من منظر بعض نماذج الخزف الاسلامية التى عثر عليها فى نفس البقعة على أنه يظهر أن الخزافين المحليين حاولوا تقليد الصينى الأخضر، ولكن نجاحهم فى ذلك لم يبلغ درجة تذكر، ولعل السبب فى ذلك عدم وجود المواد الملائمة لصنعه . وقد أخبرتنى الآنسة كاتون طمسون، العالمة البريطانية بالحفريات الأثرية التى نقبت عن معبد فى حضرموت، أنها اشترت فعلا من الوادى زهرية من الصينى السلادونى كاملة غير مكسورة، ويظن أنها استوردت فى القرون الوسطى .

وطبعا ليس الصينى الأخضر السلادونى هو النوع الوحيد الذى يوجد هناك، بل إنك قد تلتقط من كثير من تلك التلال، التى كانت يوما من الأيام مدائن، آنية صينية « زرقاء وبيضاء » ترجع إلى تاريخ حديث نسبيا، بل قد تجد شظايا فناجين قهوة يابانية قد طليت بهلال، سعيا وراء اكتساب السوق الاسلامية ـ تجد كل ذلك جنبا إلى جنب مع أدوات قد

ترجع إلى ألفى سنة ماضية . ولا شك أن الخزف الصينى كان يؤخذ من الساحل العربى بطريق البر إلى القصبتين الاسلاميتين العظيمتين، بغداد والقاهرة . كذلك كانت ريسوت –وقد تحول عنها التيار الرئيسى للتجارة العالمية– ميناء هاما لتجارة الهند والصين ، فبناء على ما رواه ابن المجاور كانت هناك طريق تمتد من ريسوت إلى بغداد لا تنقطع عنها حركة السفر، ولو أنه لم يخصص بالذكر الواردات الخزفية . ويذكر ماركو بولو كذلك عددا من الموانى البحرية الكبيرة على طول هذا الساحل . بل إن الادريسى يزودنا بسبب لتحول تجارة الشرق الأقصى إلى سواحل اليمن . فهو يقول إن حاكما من حكام اليمن استولى على كيش، وحصنها، وبنى أسطولا كبيرا، فأوقع من الخسائر للمسافرين والتجار بغاراته ما حول التجارة من عمان إلى عدن، وكانت الحال لا تزال كذلك فى الوقت الذى كان الادريسى يكتب فيه كتابه فى الجغرافية . ويقول الادريسى إن حملات تجارية بحرية كانت تخرج من صحار إلى الصين. وكما قد يترقب المرء، كانت بيوت مال الدولة الرسولية فى اليمن تحتوى على عدد كبير من الآنية الصينية . ويقرر الخزرجى فى حولياته عن سنة ٧٠٣هـ . أن شحنة واحدة من المسك، وحجر اليشب، والخزف، والمنسوجات، جلبها تاجر من الصين إلى عدن فرض عليها مكس بلغ ٣٠٠,٠٠٠ درهم .

ومما يشوق ذكره بصدد الكلام عن الواردات الصينية إلى بلاد العرب أن المروزى – العالم الجغرافى الفارسى الذى كشف الدكتور آربرى عن كتابه « طبائع الحيوان » فى مكتبة وزارة الهند منذ عهد قريب، والذى نشر جزءا منه الأستاذ مينورسكى – ينبه على أن الزجاج كان من بين الواردات التى كانت تجلب من الغرب إلى الصين. ويؤيد هذه العبارة الكاتب الصينى تشاو جو-كوا الذى كان موظفا فى مصلحة المكوس (الجمارك) والذى ترجع كتاباته إلى نحو القرن الثالث عشر الميلادى . ومن المحتمل جدا أن كان ذلك الزجاج مأخوذا من الساحل الجنوبى لبلاد العرب، ومن هذا الساحل قد جمعت مجموعة من الزجاج

الذى يوجد على سطح الأرض مؤلفة من أساور ذات ألوان عدة، وقوارير زجاجية، وما أشبه ذلك؛ وقد عثر سير أورل ستين على أشياء شبيهة بهذه على ساحل مكران ببلاد الفرس، وكانت على ما يظهر مصدرة من جنوبى بلاد العرب . وكانت صناعة الزجاج هذه ومهنة النقل، على ما يبدو، قوام هذه المنطقة التى كانت مزدهرة يوما ما . ويتحدث المروزى كذلك عن الصينيين من حيث هم شديدو الفخر ببهاء ملابسهم، وبحسن أحوال منازلهم، وبعدد ما لديهم من الأوانى . والحق أن الأمر الأخير عادة صينية، فاقتناء الخزف الفاخر وجمعه كان العادة السائدة بين الأثرياء من ذوى الأذواق الفنية فى البلاد على مدى حقبة من القرون .

وكان هناك نوع آخر من الآنية الصينية التى تستورد، ذلك هو أحقاق العطور الثمينة التى كانت تجلب من الشرق الأقصى . وبناء على رواية سليمان التاجر، كان الصينيون أحيانا يضعون المسك فى أوعية محكمة السد ثم يرسلونها إلى البلاد العربية . كذلك يحدثنا التنوخى المشهور بالاسهاب، وصاحب المذكرات المسلية التى تكشف عن كثير من الحياة الاجتماعية لبغداد المتأنقة فى أثناء العصر العباسى، يحدثنا عن الدوارق الصينية المملوءة بعطر نفيس يسمى الغالية، وهى تسمية لم تتكشف لنا بعد أسباب اختيارها . وكذلك عثر على مواعين مسدودة مملوءة بالكافور من الصين، فى بيوت مال الفاطميين عندما بيعت محتوياتها فى عهد المستنصر؛ وكانت بين محتويات بيوت المال هذه، إلى جانب ذلك، خزائن كاملة مملوءة بأنواع مختلفة من الصينى .

وكان يصنع فى جزائر الهند الشرقية أدوات صينية كثيرا ما كانت قوية الشبه بالخزف الصينى الأصلى، ويظهر أن هذه وجدت سبيلها كذلك إلى الأقطار الاسلامية . ويقص مسعر بن مهلهل فى القرن العاشر. أنه كان يصنع فى كولم، الثغر البحرى بجنوبى الهند، خزف كان يباع فى العالم الاسلامى باسم خزف صينى؛ ولكنه يعلق على ذلك بأن ذلك الخزف



أوعية خزفية من عهد العائلة الوردية .

كان يختلف عن الصينى الأصلى، لأن هذا الأخير كان أشد متانة إذ أنه كان يخمر لمدة عشرة أيام، على حين أن الأوانى التى كانت تصنع فى كولم كانت تصنع من مادة واطية تخمر لمدة ثلاثة أيام فقط؛ ذلك إلى أن الأوانى المصنوعة فى كولم أقتم لونا من الأنواع الصينية الأصلية . ثم يضيف إلى ذلك النبذة الشائقة التى يخبرنا فيها بأن خزف كولم يصدر إلى عمان . والقزوينى – ولعله قد اعتمد فى نقله على مسعر بن مهلهل – يؤيد هذا الرأى، غير أنه يزيد على ذلك قوله إنه فى أيامه لم يكن التجار يصلون إلى الصين بل يقفون عند جاوة، ومنها كان يصدر الخزف



وعاء صينى مطلى طلاء أنيقا من أوائل القرن الثامن عشر وفى هذا الوقت كانت تجارة الخزف قد اجتذبت اهتمام التجار الأوربيين .

الصينى . وكانت كولم معروفة أيضا للكاتب الصينى تشاو جو-كوا، باسم كو-لن، من حيث هى مكان كان تجار التازى (تا-شى) ينتقلون فيه من السفن الصغيرة إلى السفن الكبرى، ويتجهون إلى الشرق قاصدين إلى پالمبانغ بسومطرة . وبعد ذلك كانوا يسافرون إلى الصين بنفس الطريق التى كانت تسلكها سفن پالمبانغ . ومن المرجح أن كثيرا من التجار لم يقطع قط الرحلة كلها، وهى رحلة لا شك فى أنها كانت طويلة جدا، إذ أنه كان معروفا أنها تستغرق ذهابا وإيابا ما لا يقل عن سنتين. ويضيف تشاو جو-كوا أن التجار الذين كانوا يزمعون السفر إلى أقطار غربية يقتسمون فيما بينهم فراغ السفينة ويشحنون بضائعهم فيه . وكان كل واحد منهم يناله عدة أقدام مربعة لخزن بضائعه، وكان فى أثناء الليل ينام فوقها . ويقول الكاتب إن معظم الأوانى كانت من الخزف ينظم صغير قطعه فى داخل كبيره حتى لا تبقى فتحة . ومن التاشى أو الأقطار العربية كانت ترسل سفن كذلك إلى زنجبار محملة بالصينى .

ولعل من أغزر المقالات وأهمها عن صناعة الخزف الصينى ما نجده فى «كتاب الجماهر فى معرفة الجواهر» تأليف البيرونى، وقد نشر قبل الحرب بقليل فى الهند، نشره وصححه الأستاذ كرنكو (Krenkow)، ويرجع تاريخه إلى نحو النصف الأول من القرن الخامس الهجرى. يقول البيرونى : « وسمعت فى الصينية الخالصة أنهم إذا أنعموا تهيئة المروة والتى

لهم منها أفضل مما لغيرهم وقد صفوها بشفاف كشفاف البلور، طرحوها فى أوعية معمولة من جلود الجواميس، وأخذ الفعلة دوسها بالأرجل وهى رطبة، كل واحد مدة معلومة، ثم ينقلها عند تمام المدة إلى آلة صاحبه الذى يليه، فيأخذ هو فى مثله، وتدور النوبة بالعمل والراحة فيما بينهم؛ والغرض فيها أن لا تتعطل لحظة من الدوس، فانها تجمد وتفسد — وهكذا، إلى أن تدرك كما يراد لزجا متمددا كالعجين. وتعجن بكلس الرصاص القلعى المحرق — وربما يعمل منه القصاع، فاذا يبست أشرب ظواهرها وبواطنها بذلك الكلس، ثم أدخلت الأتون — وذكر بارينال الصابئ أن هذه القصاع يرتفع الفائق منها من بلد ينكجوه (Yang-Chu) من بلدانهم، وزاد بعض المخبرين عنها أنه إذا بلغ غايته أدخلوه فى حيضان ويديمون تحريكه بالأقدام من عشر سنين إلى مائة وخمسين يتوارثونه، وربما مكث أربعمائة سنة — وأنها تكون كالزجاج إذا انكسرت ذوبوها وأعادوا صنعتها — قال الاخوان — خير الغضائر الصينية المشمشية اللون، الرقيقة الجرم، الصافية، قيمة الواحد منها عشرة دنانير.

وكان لى بالرى صديق من الباعة أصبهانى أضافنى فى داره، فرأيت جميع ما فيها من القصاع، والأسكرجات، والنوفلات، والأطباق، والأكواز، والمشارب، حتى الأباريق، والطسوس، والمحارض، والمنارات، والمسارج، وسائر الأدوات كلها من خزف صينى؛ فتعجبت من همته فى ذلك فى التجمل.»

ولايكاد يكون هناك شك فى أن هذا الوصف للآنية الصينية وصف صادق فى جوهره، فاننا نجد فى الأسفار الشهيرة للرحالة



نهر پيرل فى كانتون — وكانتون هى المدينة التى صنعت الخزف وصدرته إلى العالم الغربى.

الايطالى ماركو بولو — الذى أتيحت له فرصة طيبة للتحقق من وصف ما يصف حينما كان فى الصين — فقرة قوية الشبه بعبارة البيرونى . ولقد يكون من فضول القول أن نقتبس هنا الوصف المعروف الذى كتبه ابن بطوطة عن المدن الصينية المشهورة بصناعة الخزف، ولكنه يختص بالذكر كانتون وزيتون (تشوان ـ تشو ـ فو)، ويظهر أن الصينى كان لايزال، فى أيام حياته، يصدر إلى اليمن .

ومما هو ثابت المعرفة، من نماذج باقية حتى اليوم، أن الأدوات الصينية كان لها أثر كبير فى صناعة الخزف الاسلامية بعد أن جمع الفتح المغولى بين المدنيتين العظيمتين تحت حاكم واحد، وخاصة لأنه كان من عادة المغول أن يجلبوا صناعا صينيين ويسكنوهم فى البلاد الاسلامية، على حين كانوا ينقلون الصناع المسلمين إلى جهات فى آسيا . ويشير الكاتب الصينى، تشانغ تشؤن، فى كتابته عن ذلك العهد، إلى التغيرات التى حدثت فى الجزء الشرقى من بلاد فارس، بعد الفتح، قائلا «إن الصناع الصينيين يوجدون فى كل مكان بسمرقند . ولديهم نوع من الصينى يشبه النوع المعروف عندنا باسم تنغ شبها كبيرا . » ولم يكن ذلك التأثير من جانب واحد فقط، إذ أن من المعتقد أن الصينيين قد اكتسبوا معرفتهم بفن الطلاء المعدنى عن المسلمين، ومنذ القرن الخامس عشر فصاعدا كان يصدر من بعض البلاد الاسلامية — ولعلها كانت بلاد فارس — لون كوبلت وهو ذو زرقة قاتمة وهو معروف لنا باسم الأزرق المحمدى . على أن صادرات هذه المنتجات كانت غير منتظمة الوصول، ولا شك أن السبب فى ذلك كان بعد المواصلات بين أقطار المدنيتين، وكان لون كوبلت مخصصا فى أول الأمر لمصنع الدولة، لعلو قدره وارتفاع ثمنه .

ومن هذه الاشارات الموجزة يتضح لنا كيف أن مدنيتين متباينتين تحتفظ كل منهما بشخصيتها على حين تؤثر كل منهما فى الأخرى بما يمنحها ثروة وفائدة عظيمة .

الانجليزى وحديقته

للكاتب الانجليزى روم لاندو

حين أتيح لى للمرة الأولى فى حياتى الأدبية أن أكتب كتابا قدر له أن ينال رواجا عظيما، وربحت منه قدرا من المال يفوق ما امتلكته فى حياتى كلها من قبل، قلت فى نفسى : الآن تحقق أملى الأعظم فى الحياة، أن تكون لى حديقة خاصة. أما أن الحديقة سيكون معها منزل للسكنى، فهذا أمر لم يكد يكون ذا بال. فان الشىء الجوهرى هو أن تكون لى حديقة !

هناك أمنية يخفق بها قلب كل انكليزى، سواء أكان أميرا للبحر أم تاجرا، فنانا أم كشافا، رئيسا للوزارة أم عاملا : تلك هى أن يقضى بقية أيامه فى حديقته الخاصة، حيث يتعهد بالعناية زهوره وبقوله، ويتتبع

حافة من زهور السوسن الرائعة الجمال وقد زادها حسنا سور من أشجار الأشكل التى أحسن تشذيبها .





ركن من حديقة سنت جيمز خلف هوايتهول مقر الوزارات والمصالح الحكومية فى لندن . وبالحديقة بركة تحيط بها البساتين النضرة ويمرح فيها البط وغيره من طير الماء .

بقلق تقلبات الجو، والحشرات المؤذية للزرع، والأرانب البرية التى تبيد المحصولات وتلتهمها التهاما . ويتجاذب مع جاره أطراف الحديث على كل ما يتعلق بفلاحة البساتين. وليس بين العواطف التى يفيض بها قلب الانكليزى ما يفوق فى حرارته وعمقه شغفه بفلاحة البساتين، فهو شعور أشد تعمقا من شغفه بالرياضة، وتحقيقه يجلب إليه من الاطمئنان والرضى والغبطة ما لا يجلبه النجاح فى معترك الحياة .

إن ببريطانيا، إذا راعينا مساحتها وعدد سكانها، من الحدائق الشخصية عددا أكبر مما بأى قطر آخر من أقطار الدنيا . فليس فى مملكة أخرى عدد أكبر مما فى بريطانيا من الناس الذين يعيشون فى الريف أو يمتلكون بالاضافة إلى منزلهم فى المدينة منزلا آخر فى الريف ولو كان هذا المنزل الريفى لا يتعدى أن يكون كوخا صغيرا ملحقا به قطعة صغيرة من الأرض. وإذا أنت أردت أن تعرف الانكليزى معرفة دقيقة لزمك

فوق : الحدائق أمام قصر الملك جورج السادس فى ساندرنغهام .
تحت : الحدائق والنافورات البديعة فى قصر لنغليت فى ولتشير .

أن تلقاه فى حديقته، حيث يرتدى أشد ملابسه رثاثة وقدما، ويتحرر بذلك من كل التكاليف والتقاليد ويتجلى فى طبيعته الحقة .

فهو حين يفكر فيما يزرعه من المحصولات، وفى موقع الأشجار الجديدة وتنسيق الألوان فى حافات الزهور، يستطيع أن يطلق العنان لخياله ولما يكبته فى حياته العامة من حماسة كحماسة الصبيان . بل إنه ليستطيع بفلاحته لحديقته أن يعبر عن غريزته الخالقة، تلك الغرِيزة البارزة فى أمة طالما أسدت إلى العلم أيادى صارت اليوم تراثا مشتركا للجنس البشرى كله . فان تحويل قطعة ماحلة جرداء من الأرض إلى روضة زاخرة بالجمال، تسطع فيها أنوار الزهور، وتؤتى أكلها من الفاكهة والبقول، هو بدرجة متواضعة عمل إبداعى يحقق للنفس من الرضى ما يحققه إبداع الفنان لتحفة رائعة من الفن .

لكن حب الانكليزى لفلاحة البساتين مصدره الجوهرى هو حبه للطبيعة . فعلى الرغم من تقدمه الشاسع فى ميادين العلم والاقتصاد والصناعة، لم يقطع العلائق التى تصله بالطبيعة . بل الواقع أنه كلما ازدادت المعيشة العصرية به عن الطبيعة بعدا، ازداد هو بالطبيعة شغفا وإليها تلهفا . وإنه حين يزرع حديقته الصغيرة ليجدد علائقه بالقوى والنواميس الطبيعية التى يشعر بأنها لا غنى عنها لحياة صحية سعيدة .

لقد مرت الآن قرون طويلة والحياة الانكليزية — كالشعر الانكليزى — تجد من الطبيعة والريف وزراعة الحدائق مصدرا من أعظم مصادرها للالهام . ويغلب على الظن أن الشغف بالحدائق قد جلبه إلى انكلترا للمرة الأولى الرومان منذ ألفى سنة . ولكن الانكليز سرعان ما صبغوا هذا الفن بصبغتهم القومية والشخصية المتميزة .

وفى البدء لم يستطع إلا الأغنياء إشباع شغفهم بالحدائق، ولكن سرعان ما عم هذا الشغف وتأصل فى الشعب كله . وحيث تتقد جذوة الحماسة تتعدد الآراء والمذاهب، وتتفرع النظريات والأساليب المتميزة والأذواق المتباينة . وهكذا صارت الأساليب والأذواق فى اتخاذ الحدائق

صريحة متبدلة كالأساليب والأذواق فى الملابس. ونتج عن هذا أن بأنكلترا الآن نماذج من كل نوع من أنواع الحدائق عرفه العالم الغربى.

فلا تزال توجد حدائق إليزابثية ذات ممرات محصورة وسياجات مشذبة. وحدائق إغريقية ورومانية بها تماثيل قديمة تتألق بياضا وبهجة ومن خلفها الأشجار العتيقة ذات الخضرة الزمردية الداكنة، وتكلل تلالها الصناعية هياكل صغيرة. وحدائق اتبعت فى تنسيقها قوانين متزمتة محددة، بها دروب عريضة ونافورات للمياه وحقول من الزهور منظمة تنظيما هندسيا صارما من النوع المحبوب فى فرنسا و إيطاليا. وحدائق طبيعية ينسجم منظرها مع منظر الريف المحيط بها بحيث لا تكاد تبدو صنعة البستانى الماهر فى تنسيقها. وفى القرن التاسع عشر كانت الحديقة «الرومانتيكية» محبوبة جدا، وبها ما يحاكى الأطلال وشلالات المياه وأماكن الخلوة الكئيبة المنعزلة، وبها من أشجار الصنوبر

موذج من المنزل الانكليزى العتيق من عهد تيودور بحدائقه المشذبة وروده المتموجة وممراته الأنيقة المعبدة تعبيدا يبهر العقول.



والشربين الداكنة ما يمثل زاوية فى جبال الألب النائية.

ولكن مهما تكن أذواق العصور الماضية، فان الذوق الشائع اليوم يتطلب أمرين أساسيين، أن تكون الحديقة معزولة خفية عن أنظار الناس، وأن يكون منظرها طبيعيا خاليا من التصنع. فأما الرغبة فى الانعزال والخفاء فشىء شديد التأصل فى نفوس شعب يكره التظاهر وينفر من التباهى، ويعتبر كل فرد من أفراده منزله كحصنه الحصين. فالحديقة التى تخفيها الجدران أو سياجات العشب العالية تحقق الخلوة المرغوب فيها. هذا والحدائق التى نسقت تنسيقا هندسيا صناعيا شديد التكلف والتحديد كتلك التى توجد فى القارة الأوربية، ينفر منها الذوق البريطانى، فالبريطانيون مشغوفون بالحرية والذاتية والبعد عن التكليف.

ليس معنى هذا أن الانكليز لا يحبون نباتات البلاد الأجنبية. فالواقع عكس هذا. فان أوضع البستانيين حالاً يتوق إلى أن يزرع فى حديقته شجيرة أو زهرة موطنها الحقيقى جبال الهملايا أو سواحل البحر الأبيض المتوسط أو جبال فارس. فان الميل إلى الترحال فى البلدان الأجنبية، ذلك الميل الذى استرسل فيه الانكليز قبل غيرهم من الشعوب الأوربية بزمان طويل، مضافا إليه تعلقهم بامبراطوريتهم المترامية الأطراف، قد مكن البستانى الانكليزى من جمع نباتات من كل قطر من أقطار الدنيا تقريبا.

ويرجع إلى اهتمام الانكليزى بالأقطار الأجنبية، وبخاصة بلدان الشرق الأوسط، أن كثيرا من الزهور الفارسية المتميزة، مثل (اللاله)، والياسمين، والخزامى، وشقائق النعمان، صارت من أحب الزهور وأشيعها فى الحدائق الانكليزية كلها تقريبا. وفى السنوات الأخيرة وجد شغف البستانى الانكليزى بالنباتات الأجنبية أعظم العون من الأبحاث والرحلات النباتية الكثيرة التى قامت بها الهيئات العلمية فى بريطانيا، تلك الهيئات التى تنفق المال والمجهود عن سعة لتزيد من علم الانكليزى بالنباتات الأجنبية ولتزيد من الوسائل التى تحقق لهذه النباتات نموا مزدهرا.

إن البستانى الانكليزى مدين لمناخ بلاده بأعظم الدين. فان الأمطار

السائدة تحقق للأرض أن تهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج . وأول شيء يثير عجب الأجنبى حين يزور انكلترا هو خضرتها التى لا تبارى . وقرب تيار الخليج الدافئ الذى يجرى بحذاء السواحل الغربية والجنوبية للجزائر البريطانية يجعل البلاد معتدلة الطقس فى كل فصول السنة . وهكذا يستطيع البستانى الانكليزى أن يزرع نباتات تنتمى إلى أقاليم تقع إلى الجنوب من بريطانيا .

فى مقاطعة ديفونشير تنمو أشجار النخيل وكثير من أنواع الصبير خارج البيوت طول العام . وفى أكثر أنحاء جنوب انكلترا يزرع الناس كذلك فاكهة تنتمى إلى إقليم البحر الأبيض المتوسط، كالخوخ والمشمش والعنب والتين والقسطل الأسبانى والجوز بل اللوز أيضا . وقد نتج عن ملاءمة المناخ أن صار باستطاعة البستانى الانكليزى أن يكثر من شيئين يعتبران الدعامتين الأساسيتين لأية حديقة، وهما المروج والأشجار . فان أبرز ميزات الحدائق الانكليزية مروجها النضرة التى لا تنضب غضارتها وكثافة عشبها واخضراره فى كل فصول السنة، وأشجارها التى تزرع فى مجموعات صغيرة لا يبدو فيها تعمد التنسيق ولكنها فى الحقيقة قد نظمت بحيث تخلق منظرا بهيجا وبحيث تكفل أعظم قدر من الظل فى أنسب أجزاء الحديقة .

والانكليز لا يحبون زرع الزهور فى أشكال زخرفية بكل منها نوع واحد أو نوعان، بل يفضلون حافة واحدة بالغة الطول متسعة العرض تحتوى على خليط من الزهور من كافة الأنواع . ولكن عمل حافة من الزهور مرضية يتطلب من البراعة وحسن التخيل أكثر مما قد يتصوره العقل . فحافة الزهور ينبغى ألا يكون بها من مارس إلى نوفمبر قطعة واحدة جرداء، بل يجب أن تزرع الزهور بحيث تكون الحافة مكسوة طول هذه المدة، كما ينبغى أن تنسجم ألوانها المتنوعة أحدها مع الآخر، وأن تكون الزهور الأمامية أقصر بكثير من الزهور التى فى الخلف .

وليس من الأمور العارضة أن أكثر الرياضات الانكليزية كالصيد وصيد الأسماك والجولف وبخاصة لعبة الكريكت القومية، لا يستطاع ممارستها

إلا فى أحضان الطبيعة . كما أن التنس لايلعب فى المروج بكثرة إلا فى انكلترا دون غيرها من البلدان، ومن هنا تسميته الحقيقية، « تنس المرج » lawn tennis . فمع أن الحقول الخضراء وسياجات العشب والأشجار قد لا تكون جزءا من الرياضة نفسها، فان هذه الرياضة متعلقة بها أشد التعلق حتى إن الانكليزى لا يكاد يتمتع بلعبته بغيرها . ومراكز الرياضة المشهورة فى بريطانيا، مثل ومبلـدن (Wimbledon) حيث تقام مباريات التنس العالمية، وهنلى (Henley) على نهر التاميز حيث تقام مسابقات القوارب، وسنت اندروز (St. Andrews) وجلينيجلز (Gleneagles) حيث يجتمع أبطال الجولف العالميون، وهيرلنجهـام (Hurlingham) ورنيله (Ranelagh) (قرب لندن) حيث تتوفر الفرص للعبة البولو ومعظم الألعاب الأخرى — كل هذه المراكز تقع فى بيئات طبيعية بارعة الجمال تكثر فيها المروج والأشجار .

يقول مثل انكليزى إن موقعة ووترلو، التى هزم فيها البريطانيون نابليون هزيمة نهائية، قد «ربحت على حقول اللعب فى إيتون » . وايتون هى أشهر مدرسة فى انكلترا، تلقى فيها كثير من قواد ووترلو تعليمهم المبكر . ومعنى هذا المثل أن ما مكن قواد بريطانيا من التفوق على نابليون كان الألعاب والرياضة أكثر من التدريب العسكرى الصرف . هذا ومن الهام أننا نتحدث عن «حقول » اللعب فى ايتون وليس عن



إلى اليسار : أيكة ساحرة الجمال مكسوة بالورود . فى الأسفل : كوخ فى حديقة فاتنة .



مسرح الألعاب أو ساحة اللعب أو أرض الجمباز. ذلك أنه حتى فى المدارس العظيمة فى بريطانيا حيث تعد الرياضة جزءا جوهريا من التعليم يقام بالتدريب الرياضى فى الحدائق والحقول وليس فى مسارح الألعاب وميادينها التى تخلو من الصبغة الذاتية .

ويوجد نظير هذه العلاقة المتينة بين الحياة الانكليزية والحدائق حتى فى لندن نفسها . ففى صميم قلب أكبر مدينة فى الدنيا يوجد عدد من البساتين الجميلة أشهرها هايد پارك وسنت چيمس پارك . وهكذا يحاول الانكليزى فى معمعة حياته المائجة ألا ينسى الطبيعة . ومنذ بدأت الحرب لم يقتصر الأمر على أن عدد البساتين فى لندن لم ينقص، بل إنه زاد . فكثير من الأحياء التى تركتها القنابل الألمانية قاعا صفصفا حولها السكان بسرعة من أطلال وخرائب إلى حدائق بديعة غناء تسر الناظرين.

من الطبيعى أن هذه الحدائق فى زمن الحرب توقف جلها على إنتاج البقول . وكثير من البساتين الكبيرة التى تحيط بالقصور المشهورة والقلاع التاريخية والمنازل العظيمة قد ضحت بمروجها البديعة وأعشابها الفاخرة وزهورها الثمينة لتنتج محصولات اكثر منفعة عملية وبخاصة البقول . فحدائق الملك جورج السادس المشهورة فى سندرنجهام (Sandringham) قد حولت كلها إلى أعمال الزراعة وفلاحة البساتين، فحقول القمح الشاسعة تمتد الآن حتى مدخل القصر الملكى . وقد حذت الأمة كلها حذو ملكها. فآلاف الحدائق الصغيرة التى توجد خلف أغلب البيوت الانكليزية، مهما كانت متواضعة، وسواء أكانت فى المدن العظيمة أم فى مدن المقاطعات الصغيرة، كلها الآن مملوءة بالفول والبطاطس والكرنب والخس والسبانخ.

لكن الأشجار القديمة لا تزال هناك، وفى بعض الأركان المنزوية تجد دائما بضع ورود وأزهار. فليس من حرب عالمية فى مقدورها أن تحول الانكليزى إلى كائن نفعى لا يبالى إلا بالفائدة العملية، أو أن تخمد من جذوة حبه للطبيعة، وغرامه بالجمال الذى يتجلى فى الأزهار، وشغفه بالهدوء والسلام الذى توحى به الأشجار القديمة .



لورنس. من رسم
أوغسطس جون .

أعمدة الحكمة السبعة - ١

بقلم الدكتور محمد الدسوقي النويهي
مدرس الأدب العربي بمعهد الدراسات الشرقية بجامعة لندن

١ — مرآة صادقة للعرب وبلادهم .

استغرقت أسفار لورنس فى بلاد العرب عامى ١٩١٧ و١٩١٨، قطع فيهما لورنس مئات الأميال، وامتد تجواله من جدة جنوبا إلى دمشق شمالا، و إلى وادى السرحان والأزرق شرقا . وقد قام لورنس برحلاته فى كل فصول السنة، فى الصيف بقيظه الخانق المحرق، وفى الشتاء ببرده الأليم وثلوجه الزلقة الخطرة الخداعة . وليس يعنينا هنا ما لهذه الأسفار من أهمية سياسية ومن أثر فى تاريخ العرب القومى، إنما نقصر اهتمامنا على أغراض علمية محضة : فنتلمس فى حديث لورنس مرآة لبلاد العرب، ونرى كيف يعيننا ما كتبه عنها فى تفهم طبيعتها، وفى إدراك مزاج أهلها وخلقهم، وكيف يقدم لنا وصفه وملاحظاته شرحا من خير الشروح وأجودها للأدب العربى، وبخاصة الشعر العربى القديم . بل سنعجب أبلغ العجب حين نجد الصحراء تلهم هذا الانكليزى فى القرن العشرين أفكارا وأخيلة تنطبق أشد الانطباق على ماقاله شعراء الجزيرة العربية منذ مئات السنين، وحين نراه يستجيب لوحى الصحراء وتأثيرها فى تعبيرات فنية تذكرنا بما أنشده شعراء الجاهلية والاسلام .

سجل لورنس تجاربه وانفعالاته فى كتابه الرائع «أعمدة الحكمة السبعة Seven Pillars of Wisdom »، الذى قد أصبح من أمهات الكتب فى الأدب الانكليزى . والقارئ العربى لهذا الكتاب سيصيد عصفورين بحجر، سيطلع على نموذج عال رفيع للنثر الانكليزى، وسيزداد فهما للجزيرة العربية . فنحن مانتم قراءته إلا وقد أدركنا بجلاء الصفة الحقة لبلاد العرب، وما تتسم به من صعوبة عنيفة تكاد تعى المجهود البشرى . ففيافيها المجدبة الشاسعة، ومفاوزها الخطرة المهلكة، ورمالها الممتدة اللانهائية، وجبالها الوعرة المحلقة، ودوياتها ومهامهها، ووهادها ووديانها، وصخورها ونجادها، وعطشها ومحلها، وسرابها وآلها، و إقفارها ووحشتها : كل ذلك نتبينه جليا وكأننا نراه ونلمسه ونمارسه ونعانيه، وكأننا نتجشمه ونقاسيه . إذ ذاك ندرك حق الادراك لم كان يفخر

الشعراء الأقدمون بصبرهم على الأسفار فى مفاوز الصحراء، وبجلدهم على مشقاتها، وبشجاعتهم بل تهورهم فى اقتحام أهوالها .

إذ ذاك تعترينا قشعريرة حين نقرأ قول طرفة :

على مثلها أمضى إذا قال صاحبى   ألا ليتنى أفديك منها وأفتدى
وجاشت إليه النفس خوفا وخاله   مصابا ولو أمسى على غير مرصد

أو قول الشنفرى :

ومرقبة عيطاء يقصر دونها   أخو الضروة الرجل الخفيف المشفف
نميت إلى أعلى ذراها وقد دنا   من الليل ملتف الحديقة أسدف
وواد بعيد العمق ضنك جماعه   بواطنه للجن والأسد مألف
تعسفت منه بعد ما سقط الندى   غماليل يخشى غيلها المتعسف
إذا خشعت نفس الجبان وخيمت   فلى حيث يخشى أن يجاوز مخشف

أو استمعنا إلى قول سويد بن أبى كاهل :

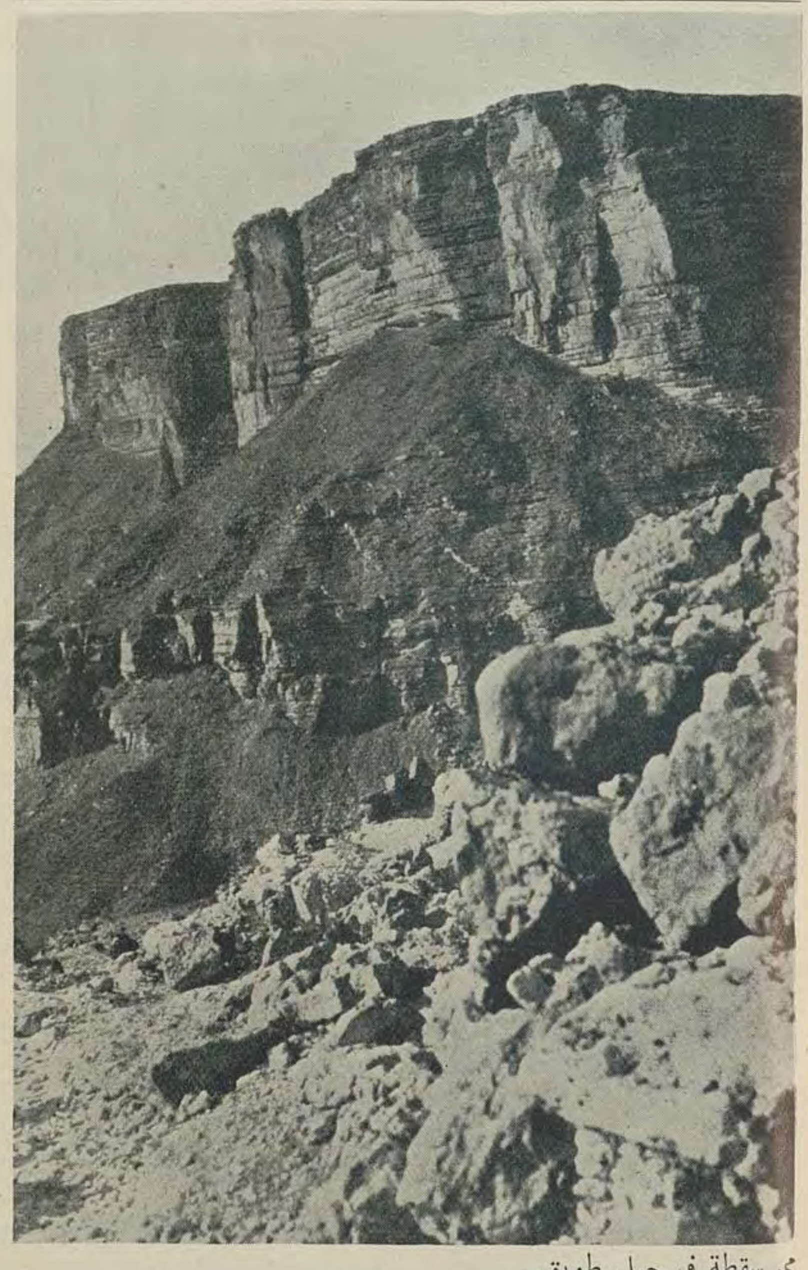
كم قطعنا دون سلمى مهمها   نازح الغور إذا الآل لمع
فى حرور ينضج اللحم بها   يأخذ السائر فيها كالصقع
وفلاة واضح أقرابها   باليات مثل مرفت القزع
يسبح الآل على أعلامها   وعلى البيد إذا اليوم قتع
فركبناها على مجهولها   بصلاب الأرض فيهن شجع

أو إلى قول المرقش الأكبر :

ومنزل ضنك لا أريد مبيته   كأنى به من شدة الروع آنس
ودوية غبراء قد طال عهدها   تهالك فيها الورد والمرء ناعس
قطعت إلى معروفها نكراتها   بعيهامة تنسل والليل دامس

أو قول امرىء القيس :

ودوية لا يهتدى لفلاتها   بعرفان أعلام ولاضوء كوكب



ممر سقطة فى جبل طويق .



جبل فريضة فى سلسلة جبال الضمخ .

تلافيتها والبوم يدعو بها الصدى   وقد ألبست أفراطهـا ثنى غيهب

فليس كتاب لورنس إلا شرحا لكل هذه الأهوال والمخاوف والآلام .

وكم يمتلىء قلبنا بالاكبار لعزيمة هذا البريطانى الذى تحمل طبيعة هى صعبة على أبنائها، بجلد لا يفوقه جلد، ليقدم لنا فى ختام مشاقه خلاصة لما رآه وجربه وقاساه .

ومن آلم ما يواجهه المسافر فى الصحراء قيظها وشدة حرارتها، والشعر العربى القديم ملىء بأوصاف الشعراء لحرارة الهاجرة فى صور فنية متعددة . فاستمع الآن إلى ما يقصه لورنس عن هذه الحرور وقد زادها إيلاما تحمل الريح بالرمال : «كانت ريحا خانقة للأنفاس، ولما تطاول النهار وارتفعت الشمس فى السماء ازدادت شدتها، وازداد تحملها بغبار النفود، تلك الصحراء الرملية العظيمة فى شمال جزيرة العرب، التى كانت قريبة منا عبر الأفق ولكن لم نستطع رؤيتها خلال الوهج . وما أن انتصف النهار حتى هبت نصف زوبعة شديدة الجفاف إلى حد أن شفاهنا المتقلصة تشققت وتفتحت، كما تشقق الجلد على وجوهنا، وقد تخشنت جفوننـا وتحببت، كأنهـا تقلصت وانكمشت عن عيوننا المنكسرة دون أن تغطيها ... (ص٢٤٧) .»

أليس ذلك شرحا تفصيليا لقول سويد بن أبى كاهل :

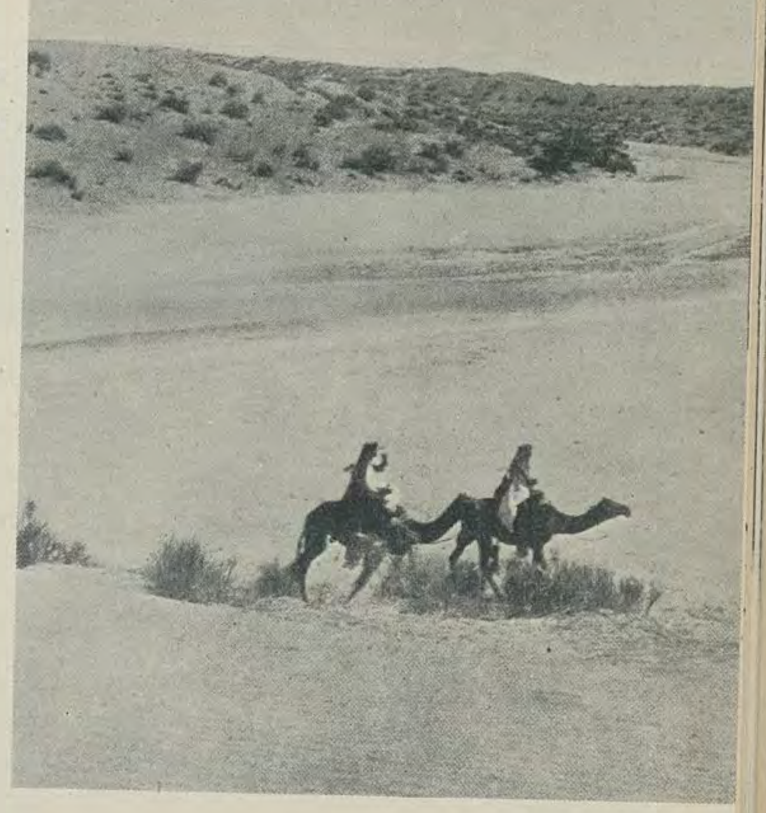
فى حرور ينضج اللحم بهـا   يأخذ السائر فيها كالصقع

ولم تكن مشقات لورنس مقصورة على الطبيعة، و إن كانت هذه أليمة بالكفاية، بل إنه فى كل أسفاره كان معرضا لأخطار أخرى من ناحية السكان وهجماتهم . ذلك أنه يجب علينا أن نتذكر أن بلاد العرب إذ ذاك لم تكن بعد قد عرفت الأمان الذى بسطه عليها الملك ابن سعود، ذلك الرجل الفذ العظيم، ذلك العبقرى الذى أضفى على أشد أقطار العالم هولا من الأمن والسلم مالم تعرفه بلاد العرب منذ عهد الخلفاء الراشدين، فكان البدو كما كانوا قبل الاسلام وكما كانوا بعد أبى بكر وعمر رجالا لايؤمن جانبهم، ولا تغمض للمرء عين خوفا من غاراتهم . وتلك هى بلاد العرب التى يصورها أغلب الأدب العربى، بلاد مكتظة بالأخطار، دائمة الحروب، تقضى الحياة فيها بين هجوم ودفع هجوم، والموت ماثل أمام العين فى كل لحظة من النهار والليل؛ تلك كانت حالتها قبل أن يسبغ الله عليها شخصية ابن سعود، وتلك كانت حالتها حين زارها لورنس . وهو فى كتابه يصف لنا هذه الحال وصفا حيا نباضا، يعيننا أعظم العون على فهم الشعر العربى والتاريخ العربى وما يفيضان به من الحروب والمعارك، ومن المنازعات القبلية التى لا تنتهى، ومن طلب الثأر والانتقام . فكتاب لورنس ليس إلا ملحمة بطولية تفيض بهذا كله . وقد لخص فى مقدمة كتابه هذه الحال فقال :

«كان الدم أبدا على أيدينا، إذ كان لنا مباحا . وكأن الجرح والقتل كانا ألمين عارضين سريعى الزوال، هكذا كانت الحياة شديدة القصر وشديدة المرارة علينا . و إذ كان شقاء الحياة على هذه الدرجة من الشدة، كان لازما أن يكون شقاء العقاب لا رحمة فيه . عشنا لليوم ومتنا له . وحين كان سبب للعقاب ورغبة فيه كتبنا درسنا بالمدفع أو بالسوط فورا على لحم المعانى العابس المغيظ، ولم يكن للقضية استئناف، فما كانت الصحراء لتسمح بالعقوبات المهذبة البطيئة التى تقدمها المحاكم والسجون . »

و إليك النص الانجليزى لهذه القطعة البارعة، نثبته هنا كنموذج لما يفيض به «أعمدة الحكمة السبعة » من نثر شعرى رفيع يتدفق بالعاطفة

وادى ريمة
شرقى بريدة.



والصدق (ص ٣١) :

"Blood was always on our hands: we were licensed to it. Wounding and killing seemed ephemeral pains, so very brief and sore was life with us. With the sorrow of living so great, the sorrow of punishment had to be pitiless. We lived for the day and died for it. Where there was reason and desire to punish we wrote our lesson with gun or whip immediately in the sullen flesh of the sufferer, and the case was beyond appeal. The desert did not afford the refined slow penalties of courts and gaols."

أليست هذه الكلمات تعبيرا جديدا رائعا لما خالج نفس زهير بن أبى سلمى حين قال :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه ‌ ‌ يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

مثل هذه البلاد القاسية الخطرة، كان لا بد لسكانها أن يكونوا على

درجة غير عادية من البسالة والشجاعة، ومن الصبر والجلد والاحتمال . ولعل القارئ يتذكر كيف كان الشعراء الأقدمون يفخرون باقدامهم، وبصبرهم على الشدائد، وكيف كان المثل الأعلى للفتى العربى أن يكون نحيفا ممشوق الجسم، مفتول البنيان، شديد الجَلَد، خفيفا سريع الحركة، خاليا من البدانة والترهل والكسل، خفيف الملابس قليلها . فها هو الرحالة الانجليزى يصدق بكل هذه الفضائل العربية . يقول لورنس (ص ١٠٢ — ١٠٣) : «كانوا نحاف الجسم، ولكن تكوينهم بديع جميل، يتحركون بنشاط وخفة ورشاقة تسر العين إذ تشاهدها . وبدا مستحيلا أن يكون رجال بمثل هذا الجلد أو بمثل تلك الصلابة والشدة . فهم كانوا يستطيعون أن يركبوا مسافات شاسعة يوما بعد يوم، وأن يعدوا على الرمل وفوق الصخور حفاة فى الحر ساعات طوالا دون ألم، وأن يتسلقوا تلالهم مثل الوعول . ولم يكن ملبسهم إلا قميصا فضفاضا وأحيانا يلبسون معه سراويل قطنية قصيرة، وكوفية للرأس كانت عادة من قماش أحمر، يستخدمونها كفوطة أو كمنديل أو كجراب حسبما لزمهم . . . »

تلك الكلمات من لورنس تمثل بأجلى صورة هذه العناصر الأربعة فى الفرد العربى : نحافة الجسم ورشاقته، ورشاقة الحركة وسهولتها، وقلة الملابس وخفتها، وشدة الجلد والصبر والاحتمال . أفلا يذكرنا قوله أشد تذكير بالأبيات الخالدة التى أنشدها تأبط شرا :

قليل التشكى للمهم يصيبه كثير الهوى شت النوى والمسالك
يبيت بموماة ويضحى بغيرها جحيشا ويعرورى ظهور المهالك
ويسبق وفد الريح من حيث ينتحى بمنخرق من شده المتدارك

وقوله أيضا :

يابس الجنبين من غير بؤس وندى الكفين شهم مدل
مسبل فى الحى أحوى رفل وإذا يغزو فسمع أزل

وقول الشنفرى :

قليل جهازى غير نعلين أسحقت صدورهما مخصورة لا تخصف
وملحفة درس وجرد ملاءة إذا أنجمت من جانب لا تكفف

وأما إعجاب لورنس بصفات العرب الذهنية فهو يكاد لا يقل عن إعجابه بصفاتهم البدنية. فهو فى أكثر من موضع يذكر باعجاب وعجب حدة ذكائهم وثقافة فهمهم وسرعة إدراكهم وبديهتهم. وهو أيضا يذكر سرعة إدراكهم للخطر قبل وقوعه، لما طبعوا عليه من مضاء الذهن ودقة الفهم، فيقول (ص ٢٩٣) : «إن العرب قد تطبعوا على الحراسة والاستطلاع إلى حد جعلهم يكادون يحسون بالخطر قبل وقوعه، إذ أن الحس ينتبه ويستعد قبل أن يقتنع العقل بحلول الخطر.» وهذا يذكرنا بقول تأبط شرا :

إذا خاط عينيه كرى النوم لم يزل له كالئ من قلب شيحان فاتك
ويجعل عينيه ربيئة قلبه إلى سلة من حد أخلق باتك

أما فضائلهم الأولية من كرم وسخاء، ومن مروءة ونجدة، ومن نبل غريزى واعتزاز بالشرف، ومن شمم وعزة نفس، ومن حماية للجار ورعاية له، ومن ديمقراطية وإخاء ومساواة تامة : فهذه حقائق أثبت من أن نحتاج للتدليل عليها إلى الاستشهاد بلورنس. ولكننا فى هذه الحرب الحاضرة الهوجاء نخص بالذكر هنا نبلهم وعفتهم فى القتال وبعد الموقعة. فهم لا يقتلون الجرحى كما تفعل شعوب أخرى (ص ٦٥٤). وهم فى حروبهم يلتزمون مبادئ ثلاثة : الأول أن النساء لا يستحللن، والثانى أن حياة الأطفال غير القادرين على الحرب وعرضهم يبقى عليهما، والثالث أن المتاع الذى لا يستطاع أخذه يترك سليما لا إتلاف فيه (ص ٩٣). تلك مناقب عربية يتغنى بها لورنس. ويا ليت بعض الشعوب الأوربية ممن يدعى التحضر والمدنية ويفخرون بما لهم من

Kultur ولا يرحمون نساء ولا أطفالا ولا شيوخا، أقول : ليتهم يستمعون إلى هذا الزاجر الرادع . . .

كل ما قدمنا ملاحظات عامة عن طبيعة بلاد العرب ومزاج أهلها وعقليتهم كما يشرحها كتاب لورنس . والآن نوجه اهتمامنا إلى مسائل تاريخية وأدبية نقدية يساعدنا كتابه مساعدة قيمة على سبر غورها . فنرى كيف يلقى أضواء جديدة على مشكلة نشأة الشعر العربى ، والسنة الشعرية القديمة فى الاستيقاف على الطلول، وهجرة القبائل اليمنية إلى الشمال، وكيف يقرر حقائق تساعدنا على أن نفهم فهما جديدا العلة التى دفعت بمكة إلى معارضة الدعوة المحمدية كل تلك المعارضة الشديدة المريرة، وكيف أن لورنس يصف النوق والجمال وأمزجتها وطبائعها وصفا بديعا يستدعى إلى ذاكرتنا كثيرا مما قاله الشعراء الأقدمون، وموعدنا بذلك العدد القادم إن شاء الله .

ورة فريدة لعاصفة رملية فى الصحراء فى جزيرة العرب .



ميناء لندن مَدينة مِن السّفن

إن المنوال الصالح المنتظم الذى يسير عليه العمل فى ميناء لندن تعتمد عليه الملايين من الناس فى جميع أنحاء العالم لكسب قوتها، وهذه الملايين تباشر أعمالها فى مختلف الأجواء والطقوس، فى الحقول والمراعى، فى الصحارى والأدغال، فى الغابات والمناجم، فى المزارع والمروج .

منذ ألفى سنة كان ميناء لندن وما زال الينبوع الذى تتدفق منه حياة لندن، فان الأهمية الجوهرية للندن ناجمة عن كونها ميناء بحرية كبيرة . فلو لا التاميز وما تيسره ميناء لندن من تفريغ السفن وتحويلها وتوزيع الشحن لما برزت لندن قط فى عالم الوجود . ففى خلال القرون المتطاولة كانت تجارة ميناء لندن ونشاطها الأساس الراسخ الذى قامت عليه كل الأعمال والوظائف الأخرى فى لندن، من أشغال السفن والمصارف والتأمين والصناعات الكبيرة إلى أصحاب المعامل الصغيرة وتجار القطاعى والمتهنين بشتى المهن والحرف .

حتى إذا جاء وليم الفاتح منح لندن ميثاقها الأول، وبهذا الميثاق حوفظ على المؤسسات التجارية التى كانت قد توطدت . فلما صيغت بنود الميثاق الأعظم، «الماجنا كارتا»، احتفظ هذا الميثاق التاريخى لميناء لندن وسوقها بحرياتها . والحق أن القصة الصادقة لنشوء الامبراطورية البريطانية — أو مجموعة الشعوب البريطانية — ليست متضمنة فى صحائف

التاريخ العسكرى بل فى سجلات الأسواق اللندنية . حقا إن قوة بريطانيا البحرية حمت النشاط التجارى ، لكن قوة السلاح وحدها ما كان فى مقدورها أن تحافظ على تجارة عالمية متبادلة .

ظلت السفن قرونا كثيرة صغيرة الحجم لم تتطلب عمقا بعيد الغور من الماء . ففى العصور القديمة كانت السفن تفرغ من حمولتها أو تحمل بشحنها وهى راكدة فى الماء الضحل على شاطئ التاميز أو بواسطة قوارب صغيرة خفيفة . ثم أنشئت الأرصفة المبنية من الحجر أو الخشب لتجثم إليها السفن بينا تفرغ حمولتها المستوردة أو تعبأ شحنها المصدرة . وعلى مر الزمن توطدت أرصفة ومرافئ على جانب النهر على مقربة من لندن . وما جاء القرن الثامن عشر حتى كانت تجارة لندن قد بلغت من النماء والكثرة حدا أدى إلى إصدار قرار برلمانى بالموافقة على بناية أرصفة الهند الغربية . وكانت هذه أول أحواض للسفن بنيت فى الميناء، وقد افتتحت فى سنة ١٨٠٢ . وسرعان ما تلاها بناء أحواض أخرى .

وميناء لندن تستطيع اليوم أن تحتوى كل أنواع السفن، كما أن بها كافة العدد اللازمة لتناول كل أصناف البضائع وتوزيعها . فأرصفتها ومرافئها المعدة للسفن التى تشق متن البحار تمتد على كلا جانبى التاميز من تلبرى إلى جسر لندن، وهى مسافة ٢٦ ميلا، كما تمتد على مسافة أميال من الجسر كثير من الأرصفة والمخازن تباشر فيها السفن الصغيرة . وكل المرافئ الرئيسية لها محطات تتصل بالسكك الحديدية الرئيسية للمملكة المتحدة . وهناك طرق تصل أرصفة المرافئ وصلا مباشرا بشبكة الطرق المنتشرة فى المملكة . وتوجد مخازن تحويل واسعة تتسلم الشحن وتوزعها . كما توجد مستودعات محجوزة ومطلقة تودع فيها كل أصناف البضائع . وهناك مقادير عظيمة من العدد والآلات اللازمة للشحن المخصوصة مثل الخمور والصوف واللحوم .

وقبل الحرب كان يصل إلى ميناء لندن ويغادرها كل عام ما يزيد وزنه على ٦٢,٠٠٠,٠٠٠ من الأطنان من السفن المسجلة . وهذا العدد

فوق : أحواض السفن بلندن — ويرى فى أعلى الصورة جسر لندن القديم —
العهد الستيوارتى والجورجى . تحت : رسم قديم لميناء لندن حوالى سنة ١٨٦٢

فوق : جسر البرج و بركة لندن كما هى اليوم. تحت : منظر مألوف البوم فى أحواض
ألبرت والملك جورج الخامس بلندن . قارن بين هذه الصور والصور على الصفحة
المقابلة. لاحظ الاتساع العظيم الذى طرأ على الأرصفة والمخازن وخطوط السكة الحديدية

من السفن كان معناه ٤٤,٠٠٠,٠٠٠ طن من الواردات والصادرات والبضائع التى تحول من سفينة إلى أخرى . وفى سنة ١٩٣٨ كانت قيمة التجارة الخارجية فى ميناء لندن ٥٩٣,٠٠٠,٠٠٠ جنيه انكليزى، وهذا أكثر من ثلث مجموع التجارة الخارجية للمملكة المتحدة كلها . وهذا القدر الضخم يمثل نشاط آلاف من الشركات التجارية، من دور التوريد العظيمة إلى الهيئات التى تتكون من رجل واحد تخصص فى استيراد صنف أو صنفين من البضائع .

ومن المستوردات الرئيسية ما يزيد على مليونين وثلاثة أرباع المليون من الأطنان من القمح والبذور والدقيق . وما يقرب من مليون وربع مليون طن من السكر . وزهاء خمسمائة مليون رطل من الشاى . وما يقرب من مليون طن من المؤن، وما يماثلها من الفاكهة والخضروات . وأكثر من مليونين وربع مليون طن من الخشب . وزهاء مليون طن من كل من الصوف والمعادن . وما يقرب من مليون وربع مليون طن من الورق والورق الغليظ ولباب الخشب . و٣,٦٠٠,٠٠٠ طن من البترول . وأكثر من ١٢ ½ مليون جالون من الخمور والمشروبات الروحية . و٧٦,٠٠٠,٠٠٠ رطل من الطباق . و٢٣٤,٠٠٠,٠٠٠ رطل من المطاط .

وكانت هناك أنواع أخرى كثيرة من المواد الخام والبضائع التى وإن لم تستورد بمثل هذه الكميات الهائلة فكثيرا ما كانت ثمينة وذات أهمية حيوية لمختلف عمليات الصناعة . وفى كثير من هذه الأنواع صارت لندن سوق العالم بأجمعه، إذ هيأت نظاما من التوزيع بديع التنسيق، وأدت بذلك خدمات للعالم كله . ومن هذه الأنواع العاج والمواد الكيميائية والأبسطة والسجاجيد والتوابل وغراء السمك والجلود الخام والمدبوغة وجوز الهند والزيوت المركزة والأصداف والعنبر وغيرها من المواد التى تصنع منها الروائح العطرية والألياف والنيلة واليود وأصناف أخرى كثيرة . فالواقع أنه فى ما قبل الحرب كانت ميناء لندن تباشر نحو ٤٠٠ صنف من أصناف التجارة المختلفة .

ومباشرة كل هذه البضائع تتطلب استخدام قدر كبير من المهارة والدراية فى تحضيرها قبل الاتجار فيها، من تقسيمها إلى درجات مختلفة من الجودة، وفرزها وغربلتها وتصنيفها فى قوائم، والتبليغ عن حالتها، وما إلى ذلك . والخبرة اللازمة لهذا العمل لا تتأتى إلا بعد سنين من التجربة، ومن العمل فى سوق بضائعها وفيرة ومنتظمة . فالتجارة مهنة، والمتهنون لها عليهم أولا أن يكون تلامذة ومتعلمين . والتلمذة لهذه المهنة أفضل فى مرافئ لندن وفى مكاتب التجار ومعارضهم منها فى أى مكان آخر، إذ أن لندن هى جامعة التجارة .

ويمكن أن تعزى تجارة لندن العظيمة إلى ظروف كثيرة . فعلى مسافة ٢٥ ميلا من مرافئ ميناء لندن يعيش تسعة ملايين من السكان، يضاف إليهم عدد عظيم غير مستقر من رجال الأعمال والسواح . كما يعيش ما يقرب من عشرين مليونا من السكان فى مساحة حول لندن يسهل فيها توزيع البضائع توزيعا اقتصاديا . فلندن لذلك تستهلك كميات هائلة من الأطعمة والمواد التى تتدفق على الميناء . ولكن ما يدخل ميناء لندن من البضائع أعظم بكثير مما تتطلبه هذه الملايين العشرون بل أعظم مما يتطلبه كل سكان المملكة المتحدة . ذلك أن الميناء العظيمة قد جعلت مدينة لندن سوقا عالمية كبيرة، وجعلتها مركز المال والتأمين للعالم بأجمعه .

طور لا نهاية لها من السفن فى أرصفة حوض الملك جورج الخامس .



شعراء الانكليز المعاصرون:

أسرة سيتول - ١

بقلم الآنسة بيرل دى زوت

« الشعر هو الحكمة التى تجرى فى الدم
الذى هو الشجرة القرمزية المتفرعة فى باطننا. ولتلك الحكمة من القوة
ما يبعث الحياة فى الكلمات المغمورة فتخرج أكمامها أزهارا يانعة . »
أزبرت سيتول .

For poetry is the wisdom of the blood
That scarlet tree within, which has the power
To make dull words bud forth and break in flower.
OSBERT SITWELL.

«تطلع العبقرية كأنها سحابة تقبل من الأفق
إنها نمو فجائى فى حقول الفضاء . . . »
ساشفرل سيتول .

The genius comes like a cloud from the distance
A sudden growing in the fields of space . . .
SACHEVERELL SITWELL.

منذ نحو سنة كان أحد الأدباء يلقى محاضرة عن الشعر الانكليزى منذ سنة ١٩٢٠، وفى تلك المحاضرة قال المحاضر: «نحن — الذين لم يمض علينا طويل منذ خروجنا من ظل الموت، من فظائع الحرب العالمية الأولى — كنا نشعر بأن العالم المادى وما فيه من مظاهر كان حقيقة جديدة. ويجب أن نفحص عنها كما لو كنا قد بعثنا فجأة من الموت إلى الحياة، أو كما لو كنا قد استعدنا قوة البصر بعد أن كنا عميا منذ ولادتنا . يجب

علينا أن نفحص عن المظاهر المادية لنرى ما كشفت لنا عنه من الحياة الروحية . ونحن إذ نرى التصميم الشاسع للعالم، من صورة عجيبة تنعكس على صورة أخرى عجيبة، ومن الأشعة الستة التى تنعكس عن ندف الجمد (الثلج الرخو) فوق الخلود ذى الأشعة الستة، الذى للصخرة البلورية، إذ نرى أشكال الأرجل الحرشفية للطير قد انعكست على أوراق نبات عصا الراعى (كثير العُقَل) — إذ نرى كل هذا أفما يجدر بنا أن نخوض غمار هذا التواصل الذى يتسنى لنا بوساطته، كما يقول سويدنبورغ (Swedenborg)، أن نراسل الملائكة . أكانت هذه الأشكال قد صاغها العمى ؟ »

وكان ملقى هذه المحاضرة الآنسة إيدث سيتول، التى هى نفسها من بين أعظم المبتكرين من الشعراء الذين تتحدث عنهم؛ كما أنها وأخويها أزبرت وساشفرل يعدون من أنبه كتابنا اليوم وأصدقهم تمثيلا . . . وهؤلاء الأدباء من آل سيتول — كالأدباء من آل برونتى، أولئك الأخوات الشهيرات فى أدب القصة، اللائى عشن فى القرن الماضى — ترعرعن فى شمالى إنكلترة، فى مقاطعة دربيشير، المتاخمة لمنطقة من المناطق الصناعية الرئيسية فى إنكلترة . ففوهات المناجم، التى كانت قبل الحرب تضىء جنح الليل إضاءة عجيبة بما كانت ترسله من الأعلام النارية المندلعة، وأكوام خبث المعادن التى تثير فى النفس حنينا إلى أهرام مصر، هى من المعالم الأرضية المألوفة لهم من مقرهم الذى نشئوا فيه ببيته الجميل، وحدائقه الغناء، وبحيرته، وغابته .

« فالغابات المتخلخلة بين هذه المناجم لا تزيد على أن تستر صخبها وتطمسه
حتى يخيل إليك أن هناك مغارة حمراء وكيرا
وآلهة عفرهم الدخان أمام سندان حار ؛
ولكن هذه الغابة ثلاثة وديان، إنها نصف أجمة
وسنمشى حتى نجد النهر والطاحونة المتداعية للفناء . »

ساكفرل سيتول، فى «غابات رنيشو» .



صورة منزلية ساشفرل سيتول وولده .

Thin woods among these collieries but hide and blur their noise
Till you'd think a red cavern and a forge were there
With smoky gods at some hot anvil;
But this wood is three valleys, it is half a forest
And we'll walk to find the river and the dying mill.

Renishaw woods. SACHEVERELL SITWELL.

كذلك كان تلاطم المد والجزر فى بحر الشمال، مرتطما بساحل سكاربره (Scarborough)، منظرا من مناظر طفولتهم، تغنوا به جميعا، وعلى الخصوص فى المؤلفات النثرية التى سطرها قلما أزبرت وساشفرل .

« مست السحب أبراج الكنيسة
وكانت الشوارع رشاشا
على ارتفاع مائة قدم فى الهواء والعالم كله بوار،
وترى العين مائة قدم أمامها ولكن ليس فيها كائن حى
لا شىء سوى الأمواج ومرجل الصخور . »

ساشفرل سيتول .

Clouds touched the church-towers
The streets were spray
A hundred feet in air and all the world was waste,
A hundred feet to see and there was nothing living
Nothing but waves and the cauldron of the rocks.

SACHEVERELL SITWELL.

ومن المستحيل أن نعزل عبقرية هؤلاء الشعراء الثلاثة من بيئة مولدهم . بقدر ما هو مستحيل أن ندرس كاتبات آل برونتى فى عزلة عن بوار يوركشير التى تكتسحها الرياح، والتى كونت الصورة الخلفية لبيتهن الذى كان أكثر تواضعا من بيت سيتول . ذلك أنه على الرغم من أن شعراء آل سيتول قضوا جزءا كبيرا من حياتهم فى الخارج، يستمد خيالهم من معين بيتهم ويرتبط به ارتباطا وثيقا . فالأصقاع الانكليزية وفصول السنة التى تتعاقب عليها هى الأسس النهائية التى يقوم عليها شعورهم و إدراكاتهم . تقول الآنسة سيتول، فى مقدمة لبعض قصائدها

الأولى : «العالم الذى أراه عالم ريفى، عالم أشياء تنمو، حيث الخيال والنماء يصبحان شيئا واحدا . ولقد نجد فى هذه القصائد أحيانا صقعا ريفيا كل شىء نراه فيه يكون رمزا لشىء وراء هذه الدنيا، ولكن من فيه من الناس يحيون حياة الأشياء النامية، متغلغلين فى أعماق الثرى لا يدركون سوى عالم الحواس التى لم تستيقظ، دون أن يفهموا مغزى لغتها — فالنجوم لا تبدو لهم أبعد من أزهار مشاتلهم، كما أن العجائب الخفية الشاسعة تبدو لهم أمورا عادية مألوفة وبذلك لا يرون فى الموت ولا فى النجوم الخالدة أمرا غريبا . » وحول هؤلاء المخلوقات البشرية الفطرية، والبستانيين، والحوذيين، وقهارمة المنازل، ونظار القنص — تلك الحاشية التى كانت حتى عهد قريب تؤلف عنصرا هاما من كل أسرة إنكليزية عريقة — حول كل هؤلاء نسج أدباء سيتول جزءا من أمتع ما سالت به أقلامهم شعرا ونثرا . فهذا أزبرت سيتول يحدثنا، فى كتابه الفاتن عن الأسفار «اهرب معى»، كيف أن تفقهه فى الأشياء البكينية (نسبة إلى بكين العاصمة السابقة للصين) نال قسطا من المساعدة على يد خادمه الصينى تشنغ، ذاكرا الخدمات الثقافية التى كان ينالها فى العهود السابقة السيد الانكليزى الذى من أبناء الريف من الخدم الذين كانوا يساكنونه فى منزله، والذين كانوا بمثابة «الدليل أو حلقة الاتصال بين ابن البيت، منذ نعومة أظفاره، وبين العمال . فمن هؤلاء الخدم كان يعرف، كيف يعيش الناس، وكيف يتحدثون، وكيف يشعرون، بمثل ما كان



أزبرت سيتول .



إيدث سيتول .

يتعلم اللغة الفرنسية من مربية أو معلمة فرنسية . وبذلك كانت حكمة الشريف (الارستقراطى)، إذا صادف أن كان حكيما عاقلا، كما كانت حماقته، إذا حدث أن كان أحمق، كلتاهما قد تعلمها فى الدور الأرضى (مسكن الخدم)، فى مخزن الطعام أو الحجرة العامة الملاصقة للمطبخ . » وآل سيتول من سلالة بلانتا جانت، فهم ينتمون بحكم مولدهم إلى أعرق الأسر الانكليزية محتدا، ولولم تكن ميولهم قد جنحت بهم ناحية الأدب لكان من المحتمل أنهم كانوا يقضون حياتهم جميعها فى ذلك الفراغ السامى الذى يحيط بالمتأنقين من طبقة الأشراف، أو فى ذلك الجو الحيادى التافه الذى يخيم على دوائر الممثلين السياسيين . وهم جميعا شقر الشعور، سامقون — تتمثل فى مظهرهم علائم الجنس الشمالى (النورسى)، بل يكادون يكونون من جنس الفيكنگ (١) — ولا شك أنهم ورثوا روحا حربيا قويا، فهم دائما ينضمون إلى جانب الابتكار ضد الغباوة، والتعصب للرأى، وامتيازات الطبقات . بل هم جاهدوا فيما كان يعد جريمة فادحة، وهو تقدمهم للدفاع عن حقهم فى أن يكونوا شعراء، ولعل لمهارتهم فى تقلد الحسام بعض الفضل فى أنهم اليوم يحتلون مقاما رفيعا فى ميدان الأدب بدلا من أن كانوا يعدون مهرجين ومشعوذين يهزأ بهم . على أنه مهما يكن

---

(١) جنس إسكندناوى كان يغير على شواطىء أوربا من القرن الثامن إلى العاشر. [المترجم .]

هناك من تشابه سطحي فى الشكل والنشأة، على الأقل بين الأخوين وبين الرجل الانكليزى الصميم، فانهما فى الحقيقة أبعد ما يكون عن مشابهة أشراف الانكليز من سكان الريف. فهما يأنفان من «الرياضة» التى تقتل الطيور والحيوانات البرية، ولا شك أن وصف سير أزبرت للعبة الكريكيت — وهى اللعبة القومية الكبرى التى يكاد يستمد منها الرجل الانكليزى كل ما فى محادثته من المجازات القليلة بعض القلة — وصف يعتبر مثيرا للغضب. فهو يصور اللعبة، فى مرة من المرات، كما يراها صديق صينى قد خيبت آماله إذ أنه كان قد ابتاع بطاقة لدخول ملعب «أوفال» على أمل أن يرى صراعا لطيفا بين بعض الحشرات.(١) وفى ذلك المرجع العجيب الذى يسمى «الدليل العام»، الذى يصف فيه المشهورون فى نواحى الحياة المختلفة أنفسهم بما يشاءون من الأوصاف، يقرر سير أزبرت عن نفسه أنه تلقى تربيته فى الفترات التى كانت بين الفصول المدرسية. وبما أنه كان تلميذا فى تلك المدرسة العامة المشهورة التى قال عنها بطل موقعة ووترلو إن تلك الموقعة كسبت على فناء اللعب فيها،(٢) كانت دعواه هذه بأنه عصامى التربية عرضة أن تطرح على أنها تناقض ظريف. غير أن أى إنسان سبق له دخول مدرسة يعرف أن لهذه الدعوى أساسا صحيحا من الحقيقة. فقد كان فى الاجازات المدرسية حرية تمكن من اقتفاء المغامرات العظيمة للحياة، تلك الحياة التى كانت قد أخذت فعلا تشكل نفسها، فى هؤلاء الأطفال الثلاثة الموهوبين،

(١) ليلاحظ القارئ أن الكاتب يعتمد فى هذا التهكم على أن صديقه الصينى خلط بين معنيين لكلمة " Cricket " فى الانكليزية، أحدهما اللعبة المعروفة فى إنكلترة، والآخر اسم لحشرة من فصيلة الجراد تسمى الجندب أو الصرصر. [المترجم.]

(٢) تشير الكاتبة طبعا إلى كلية إيتون و إلى العبارة الشهيرة التى نطق بها ولنگتون هازم نابليون فى ووترلو. [المترجم.]



ترعة بقرب ألپورت فى مقاطعة دربيشير، وهى مهبط رأس أسرة سيتول .

بالانهماك فى التعلق بالجمال، والطبيعة، والكتب . والموسيقى، والفنون المنظورة . وفى أدباء آل سيتول شىء من روح النهضة الايطالية : فى اتساع الأفق العقلى لأفكارهم، وفى تعطشهم للاطلاع، وفى معلوماتهم المتضلعة الشاملة، وفى تهللهم لكل ظاهرة من ظواهر الذكاء الانسانى وقوة من قوى الخلق والابتكار. وهم على اتصال وثيق العرى، منذ شبيبتهم، بعظماء الفنانين فى كل قطر من أقطار العالم — من موسيقارين، ورسامين، وشعراء . وكانوا من خلصاء دياگيليف والفنانين الذين كانوا يلتفون حول ذلك العبقرى العظيم فى فن «الباليه» الروسى، (أى الرقص الموسيقى المسرحى). (وقد وضع ساشفرل سيتول الأغانى التمثيلية (الأوبرا) لاحدى قطعه — فوز نپتيون .) ولم يكن اقتفاء سبيل الشعر على أنه العمل الرئيسى فى الحياة أمرا يصادف التشجيع فى عصر يعتبر الابتكار الفنى أقل أهمية من عمل الآلات الصناعية، بله الآلات الحربية، فى عصر

تجوع فيه الحواس التى تدرك الجمال وتصبح كهاما . وكان من المسلم به أن أزبرت سيتول، الابن الأكبر، ينتظم فى سلك التمثيل السياسى، والحق أنه ذو كفاية تامة لملء أسمى مركز فى السلك السياسى، بما يتحلى به من عواطف الانسانية الفيحاء، والعدالة، والحصافة السياسية، وعدم التعصب الجنسى. ولكنه آثر أن يمد سلطانه فى اتجاه آخر، فاختار أن يكون أحد مشرعى العالم الذين لا يعترف بهم، كما عرف أحد كبار الشعراء مهمة الشاعر فى الحياة . وفى أثناء الحرب الماضية كان أزبرت سيتول ضابطا شابا . وهو، ككثير غيره من الشعراء والكتاب اليوم فى كل جيش من جيوش العالم المتطاحن، لم يكن مخدوع الرأى عن طبيعة الحرب؛ ويشتمل ديوان حديث من دواوينه على قصائد نظمها فى أثناء الحرب الماضية وبعدها مباشرة، وهى قصائد تنطبق بما فيها من الفجائع على الحرب الحاضرة . والمهنة التى اختارها آل سيتول لا تتفق وحياة النعيم كما لا تتفق وكثيرا من الاختلاط الاجتماعى التقليدى. فبلوغ درجة الكمال فى أية حرفة مهما يكن نوعها، سواء أكانت حرفة بهلوان، أو نجار، أو شاعر، عمل يستغرق كل وقته، وعلى هذا العمل وفر آل سيتول جهودهم، مدركين ما قاله بليك (Blake) من أن «الاتقان المتواصل تواصلا آليا هو الوسيلة الوحدة للعبقرية» . ومن حسن الحظ أن كان اختيارهم جميعا لعمل هم جميعا موهوبون له هبة ممتازة .

على أنه قد آن لنا أن نميز بين هذا المثلث من الشعراء فننظر إلى كل واحد منهم نظرة فردية، فمع أن وجهتهم التى يشتركون فيها فى الشعر وتفانيهم المشترك يجعل من الممكن أن نتحدث عنهم كما لو كانوا شخصا واحدا، إن مواهبهم وأخلاقهم متنوعة تنوعا كبيرا . فساشفرل سيتول، فى فصل مهم عن تاريخ حياته الأدبية فى كتابه «الحب المقدس والمدنس» (١٩٤١)، ينادى بالأثر الكبير الذى خلفته أخته — من غير أن يشير إليها بالاسم — وهى تكبره بعشر سنوات، بعبقريتها فى أخويها . «وربما لم يكن يتأتى قط أن يكون بين النساء درجة أعلى فى الادراك الفطرى

للشعر، أو عبقرية جثمانية لها من الابتكار ما هو أكثر اندماجا فى الشعر نفسه، أو أرفع منزلة فى تخيرها وانعزالها عن دنس الحياة الدنيا . وقد كان أول عهدى بنشوة الشعر تحت سلطان هذه المخلوقة الخارقة للعادة . وإدراك الشعر نشوة، ولا بد أن يكون نشوة، وعلى الخصوص للشباب . »

وفى فقرة أخرى يتغنى بالشخصية التى قضى حياته منذ طفولته فى « ظلها الوريف » . « مائة أو ألف من المجازات التى تنبعث منها الحقائق القديمة فى ضوء جديد وتتكشف منها على الدوام مقاييس جديدة : اندفاع الحكمة من قافية غريبة : تناقض الرموز ثم حل تناقضها : البراهين التى لا تنقطع على اللقانة والملاحظة، أمور لا يدركها البصر ولكن تلم بها البصيرة : القوة والنشاط الوثاب، فى صورة لها متانة الهيكل العظمى، فان القصائد فى حاجة إلى العظام، ثم العجب الذى يلى ذلك إذ تكسى العظام لحما من معين الاستعارات والصور الخيالية، فتكتمل القصائد فى زيها البهى على مثال يندر أن يكون قد سبق له نظير : التألق والألمعية والحيوية، الحاجبة للحزن، والتى تصمد للاختبار والفحص مدة تكاد تقرب مما يصمد له أى نسيج من الشعر قد خلفته لنا العصور ! » وإلى القارىء صورة أكثر تحديدا، فى بضعة أبيات مما كتبه أزبرت سيتول فى إهدائه المثير، لكتابه أناشيد الرعاة المسمى «إنكلترة تسترد»، الذى نشر أول مرة فى سنة ١٩٢٧ .

«إليك، يا ذات الوجه الشاحب المليء بالأسطورات
الذى ما برحت أراه تحت أشجار أسلافنا
التى يتردد حفيف خضرتها مع تغريد الطيور، وطنين النحل،
كما تتريثين الآن بين الحصون
وهياكل الزهر لتشتمى شذاها العبق . . .
وتقطفى زهرة بأصابعك القوطية،
التى انبرت أناملها، والتى ما زال الدم يتلكأ فيها
منطوية على مروءة مقبورة وفنون أدركها الآن الفناء

ـ غير أنها مع ذلك أصابع قد صورت لنا
أدوات جديدة للجمال، كما كشفت لنا
عن بلاد جديدة ذات حاسة جديدة وصوت جديد؛
إليك، يا ربة هذه البلاد السحرية،
يأيتها الفنانة الزاهدة صاحبة اللفظ المصور،
لقد جعلت حياتك كلها وقفا على هذه الفكرة الخالية من حب النفس
وهى أن تحيكى من اللفظ أو الصمت جمالا . . . »

To you, whose pale and legendary face
Still I can see beneath ancestral trees
That greenly shrill with birds, deep drone with bees,
As now you pause among the battlements
And fanes of flowers, to inhale their scents . . . .
To pluck a blossom with your gothic fingers,
So pointed thin, in which the blood still lingers
Of tombed chivalry and arts now dead
—Yet fingers which for us have fashioned
New instruments of beauty, and have found
New Indias of modern sense and sound;
To you, that magic country's overlord,
Ascetic artist of the painting word,
Your whole life bent to this one selfless cause
Of netting beauty with a phrase or pause . . . .

ولقد استمد كثير من الرسامين إلهامهم الفنى من إيدث سيتول، من صفحة وجهها الجميل الشبيه بوجه دانتى، ومن يديها القوطيتين البديعتين، ومن أصابعها النبيلة، ومن أخص من ألهمتهم الرسام الروسى الشهير تشليتشيف . (ولها صورة معلقة فى متحفنا الأهلى للصور.) وقد نشأت فى عزلة تامة فى المنزل العظيم الذى فى دربيشير على البحر فى سكاربره وفى منازل ريفية أخرى لأقاربها . ولقد كان هذا المخلوق البديع فى مواهبه، الفائق فى حساسيته، الذى يتصل بعالم آخر غير عالمنا ــ فى عينى أبويها اللذين لم يعرفا قدرها ــ يكاد يعد مسخوطا منكوبا . فكيف يلتئم مثل هذا المخلوق الغريب، السريع التأثر، الموهوب، بأية حالة من الأحوال، مع الحياة الانكليزية الراقية سواء كانت من ذوات الذوق المربى أو غير

المربى ؟ (ولكن أكانت موهوبة أم كانت بالأحرى عديمة المواهب ؟) وكان أبوها رجلا من ذوى الأذواق وكاتبا سيال القلم، وكانت أمها إحدى جميلات المجتمع الراقى . أما جمال ابنتهما فقد كان أبعد مما يصل إليه تصورهما . وكيف كان يتسنى لهما أن يتكهنا بأن تلك الفتاة القصمة الغريبة التى :

«ليس فى قدرتها هذا الرياء : فهى لا تـلفـظ لفظـا بثنـاء
لهراء القـول فى ثوب بهـاء، أو جواب صاخب فيـه مكاء . »

Who could pretend no gratitude
For flashing rattle, answering crash, of platitude.

ستصبح الزعيمة المقدسة لجيل تال من الشعراء، والنموذج المرغوب من أعظم رساميه؟ وإنما كان أخواها، كما رأينا، هما اللذين أدركا عظمتها وانطويا تحت لوائها . ومع أن إيدث سيتول كانت متغلغلة فى تقاليد الأدب الانكليزى، من أشعاره المشهورة وقصائده إلى أبهى ما ازدهرت به المدنية الحديثة، كان شعرها هى ينم منذ بدء عهده عن ابتكار خارق للعادة فى المجازات والاستعارات ودقة النظم حتى إن النقاد عدوها فى أول الأمر مهرجة، لم يقتصر ذلك على النقاد الذين لم تعرف أقلامهم سبيل الابتكار مدى حياتهم، بل تعداهم إلى نفر ممن كانوا يدعون حبهم للشعر ونظمهم له، وما كان أجدرهم أن يكونوا أهدى سبيلا !

ويذكرنا هذا بالبيت القديم الذى نظمه الشاعر الفارسى جامى، بعد وفاة الشاعر العظيم الفردوسى بأربعمائة سنة، يصف السلطان محمود، ولى الفردوسى الذى لم يرع له عهدا :

« مضى مجد محمود ! وليس له من شهرة بعد عهده إلا هذه،
وهى أنه لم يدرك عظمة الفردوسى . »

"Gone is the glory of Mahmud; this only is his fame in after time, that he knew not the greatness of Firdausi."

يتبع .

حل رموز الكتابة السومرية والبابلونية والعيلمية والكلدية

القسم الثانى من وصف الكشف عن الخطوط القديمة التى وجدت فى بلاد فارس

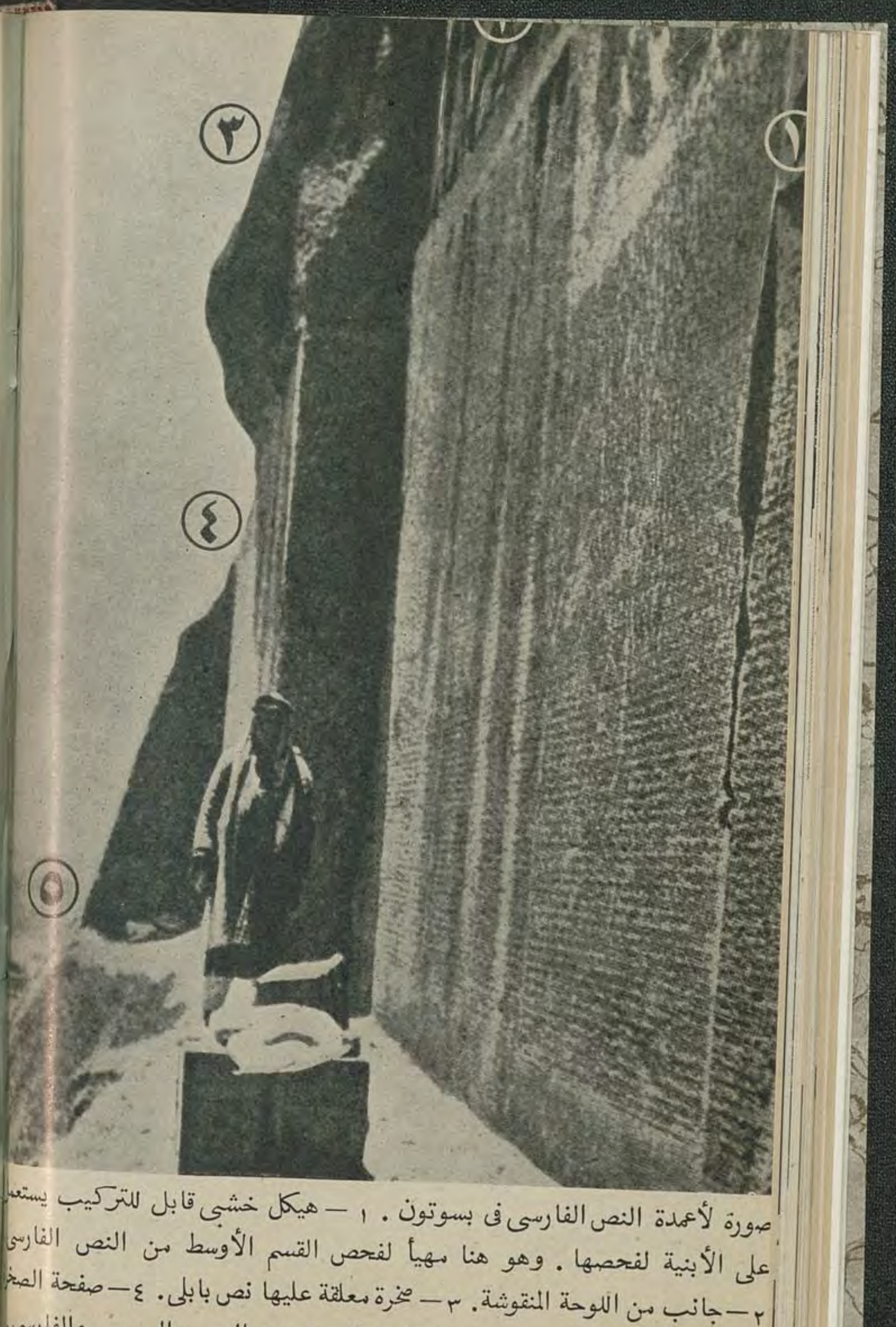
بقلم الاستاذ ج . ر . دريفر

تناولت المقالة السابقة وصفا لحل رموز الكتابة الفارسية القديمة التى وجدت فى برسيبوليس وبسوتون، كما بينت أن تلك الكتابة تحتوى على نصوص بلغتين أخريين مجهولتين؛ ونريد أن نتحدث الآن عن كيفية فك رموز هاتين اللغتين وعن النتائج الباهرة التى نتجت عن ذلك العمل .

كان غروتيفند قد حاول فعلا حل ألغاز الخطوط التى باللغة الثانية (من بين ثلاث اللغات المستعملة فى تلك النصوص) ولكن النجاح لم يكن حليفه . فاضطلع بالعمل وسترغارد فى سنة ١٨٤٤، غير معتمد على معونة تذكر من بحوث من سبقوه من المشتغلين بالموضوع، وشرع يدرس الكتابة المنحوتة على الصخرة التى فى بسوتون، والتى تقع مباشرة إلى يمين النص الفارسى القديم . على أنه كان مدينا لغروتيفند بهذا القدر، وهو أنه استخدم طريقته فى المضاهاة بين النصوص، وبذلك نجح فى تحقيق أسماء هستاسپيس، وداريوس، والاسم الذى يطلق على الجنس الفارسى وأجناس عدة أخرى؛ وبمضاهاته هذه الأسماء بالكلمات التى تقابلها فى النص الفارسى، قدر عدد العلامات أو الرموز بما يتراوح بين ٨٢ و٨٧ علامة؛ وقد أداه هذا التحليل إلى استنباط أن هذه الرموز تمثل فى بعض الأحوال حروفا هجائية كما تمثل فى بعض آخر مقاطع لفظية . على أنه لم يستطع أن يخطو بعد ذلك خطوة، إذ كان أمامه عقبة ليست بالهينة وهى أن النسخ التى كان يشتغل عليها كانت مشوهة بالأخطاء . وجاء سولسى الفرنسى فحقق ١٠٣ علامة، على حين أن قسيسا إرلنديا اسمه هنكس زاد عدد العلامات

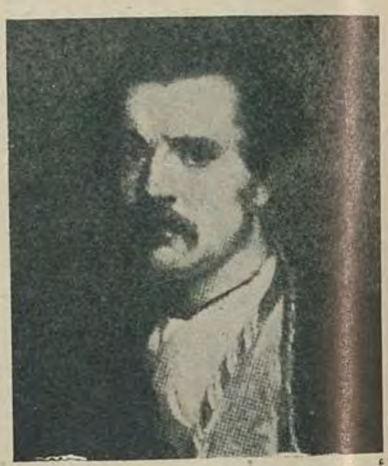
المحققة إلى ٤٨ . وعند هذه المرحلة من البحث لم يكن لدى رولنسون زمن يقضيه فى دراسة هذه اللغة فوضع نسخه للنص تحت تصرف نوريس، كاتم سر الجمعية الأسيوية الملكية؛ ولقد كان ذلك عملا فى غاية السماحة، إذ أن نقل ذلك النص كان قد كلفه زمنا وجهدا ومالا . فتمكن نوريس، باستخدامه نسخ رولنسون، من أن يقدم إلى الجمعية فى سنة ١٨٥٢ رسالة كانت فتحا جديدا؛ وقد أبان فى رسالته هذه أن تلك اللغة تحتوى على ما لا يقل عن ١٠٣ علامة؛ وقد حدد، إلى درجة معقولة من الصحة، مدلولات ٥٧ منها؛ وتبين له أن كل علامة تمثل حرف مد (أو حركة)، أو حرفا ساكنا وحرف مد، أو حرفين ساكنين بينهما حرف مد؛ وألف هيكلا يكاد يكون ذا نظام علمى لقواعد نحو اللغة؛ كما أنه قدم ترجمة لجميع النص — ترجمة لم ينقحها البحث الذى تلاها إلا فى التفصيلات . وجاء العالم الألمانى مورتمان ففحص هذه الرسالة واقترح إدخال بعض التنقيحات عليها، وسمى هذه اللغة اللغة السوسية نسبة إلى سوسه قصبة عيلم، وهى البلاد التى كانت تلك اللغة لسانا لها . وهى تعرف اليوم بهذا الاسم أو باسم آخر هو اللغة العيلمية كما اقترح هوسنغ فى سنة ١٨٩٧ . وبعد ذلك حقق العالم الفرنسى أوپير ٩٠ علامة أصاب فى ٨٣ منها، وبعمله استتب حل رموز تلك اللغة؛ فلم يبق فى احتياج إلى التحقيق سوى ٢٠ علامة من الـ ١١٣ التى ثبت وجودها فى اللغة، وقد تم ذلك أيضا منذ مدة طويلة . وفى سنة ١٨٩٠ نهض عالم ألمانى أسمه فيزباخ فجمع شتات الموضوع ونشر الطبعة المحققة الجميع النصوص السوسية أو العيلمية .

وبينما كان هذا العمل يجرى مجراه كان كل من بوتا، القنصل الفرنسى فى الموصل، وليارد، من رجال السلك السياسى الانكليزى، يخرج من أعماق الأرض عددا كبيرا من النصوص الكتابية؛ أولهما فى خرساباد سنة ١٨٤٣—١٨٤٤، وثانيهما فى قيونجيك بشمالى العراق سنة ١٨٤٥—١٨٤٧ ثم ثانية فى سنوات ١٨٤٩—١٨٥٢ فى الحلة (وهى التى ثبت فيما بعد أنها بابل) بجنوبى العراق؛ وقد توج النجاح هذه الجهود باستكشاف

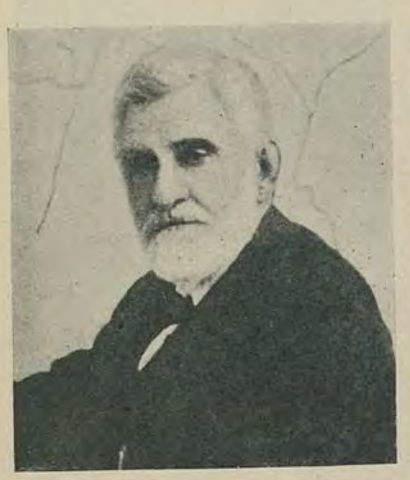


صورة لأعمدة النص الفارسى فى بسوتون . ١ — هيكل خشبي قابل للتركيب يستعم
على الأبنية لفحصها . وهو هنا مهيأ لفحص القسم الأوسط من النص الفارسى
٢ — جانب من اللوحة المنقوشة. ٣ — صخرة معلقة عليها نص بابلى. ٤ — صفحة الصخ

مكتبة الألواح الصلصالية، التى كان قد جمعها الملك الأشورى أشور بانيبال، فى خرائب قيونجيك (التى ثبت بذلك أنها مدينة نينوى) على يد رسام المنقب الكلدانى المسيحى الذى واصل وأكمل عمل ليارد فى سنة ١٨٤٩—١٨٥٤ بالنيابة عن رولنسون .



أوستن هنرى ليارد .



هرمزد رسم .

والنصوص الكتابية التى أرسلها هؤلاء البحاثون إلى أوربا استرعت الانتباه بسرعة بسبب التشابه الذى بينها وبين الكتابة التى على منكب الصخرة فى بسوتون .

وكان غروتيفند قد استخلص أسماء عدد من الملوك فى هذه اللغة الثالثة كما كان قد فعل فى النص الفارسى القديم، غير أنه لم يستطع أن يسير باستنباطه وراء تلك النقطة . أما أول بحاثة استطاع أن يقرأ كلمات مستقلة فهو لوفنشتين الذى تمكن بوساطة زهرية عليها كتابة أشورية ومصرية من قراءة الرموز الدالة على «ملك عظيم» وعلى علامة الجمع، ثم خمن برمية من غير رام أن اللغة الأشورية لغة سامية وأنها من أجل ذلك تتصل باللغة العبرية والعربية؛ وفضلا على ذلك تقدم بعض التقدم

فى بحثه فى مقارنة أسماء الأعلام فى النصين الأشورى والفارسى. وفى أثناء ذلك كان هنكس يواصل عمله مستقلا ليس بمضاهاة أسماء الأعلام فحسب بل كذلك بمضاهاة طرق الهجاء المختلفة لكلمات بعينها، فمكنه ذلك من عزل حروف المد (الحركات) «ا» (A)، و«ى» (I)، و«و» (U)؛ بل استكشف علامة ثانية للضمة «و»، (U)؛ وأصاب فى قراءة ضمير المتكلم المفرد بصيغة «أناكو» (التى يقابلها فى العبرية «أنوكى»، وفى العربية «أنا»)، كما استخلص العلامات التى تدل على «إله»، و«رجل»، و«ابن»، و«أرض»، و«بيت»، و«عظيم»، كما أنه أيد تحقيق علامة الجمع، ولكنه مع ذلك لم يستطع النطق بالكلمات التى تدل عليها تلك العلامات.



التس إدوارد هنكس.

وفى السنة التالية نجح لونغپريير الفرنسى، فى أثناء دراسته لنصوص بوتا فى باريس، من قراءة جملة كثيرة الورود كما يأتى :

«جليل هو سرغون الملك العظيم، الـ . . . ملك، ملك الملوك، ملك بلاد أشور»،

غير أنه كذلك لم يستطع النطق بهذه الألفاظ ما عدا اللفظ الدال على «عظيم» والذى كان نطقه «رَبُو» مما أثبت البحث فيما بعد صحته. وفى نفس ذلك الوقت تقريبا كان بوتا، وقد عاد إلى باريس، قد ميز وجدول ما لا يقل عن ٦٤٢ رمز مستقل، ولكنه لم يحاول قراءتها. على أن هذا الجدول أدى غرضا هاما : إذ أنه أثبت بوضوح أن الباحثين لم يكونوا يعالجون حروفا هجائية أو مجموعة مقاطع لفظية بل نظاما لكتابة خيالية

او شفاهية، أو مزيجا من النظم الثلاثة جميعا. وقد ثبت ذلك من استكشافه أن نفس الاسم الجغرافى الذى كان مكتوبا بحروف هجائية فى النص الفارسى قد يكون مرموزا له بعلامة واحدة فى النص الأشورى؛ ومثل هذه العلامة لا يمكن إلا أن تكون كتابة خيالية أو شفاهية. وبذلك أمكن القول بأن 𒆳 معناها «بلاد» أو «أرض» ولكن أحدا لم يكن يستطيع أن يحدد كيفية النطق بالكلمة.

وفى هذه المرحلة تقدم هنكس للانقاذ باثباته نقطتين: إحداهما أن الحرف الساكن وحرف المد (الحركة) يرمز إليهما عادة بعلامة واحدة، وبناء على ذلك كانت مثلا الرموز الستة التى كانت تقرأ فيما قبل على أنها صور مختلفة لحرف «ر» تمثل فى الحقيقة اَرْ، اِرْ، اُرْ، رَا، رِى، رُو، وهلم جرا؛ والنقطة الثانية أنه ليس لبعض الرموز إلا قيمة أو مدلول خيالى أو شفاهى. ووضح زيادة على ذلك أن اثنتين من هذه العلامات الشفاهية ربما لا يكون النطق بهما وفق القيمة أو المدلول الكتابى لكل منهما، بل تقرآن على أنهما لفظ مركب يختلف عن المدلولين الجزئيين. فمثلا: 𒂍 مدلولها «بيت» (أى بَيْت بالعربية) و 𒃲 مدلولها «ربو» (أى عظيم أو كبير)، ولكن المركب اللفظى منهما لا ينطق به «بيتربو» بل له نطق مغاير لذلك تماما، ولو أن معناه «بيت كبير» أى قصر! وقد عرف الآن أن هذا المركب كان يقرأ «ايكلّ» وهى نفس الكلمة العربية «هيكل» أى «قصر»؛ وبذلك ثبتت صحة ملاحظة هنكس. وقد ختم هنكس رسالته بأول ترجمة لعبارة كاملة من نص أشورى، وهى ترجمة كادت تكون صوابا برمتها. وعلى ذلك لم تجئ سنة ١٨٥٠ حتى كانت أصول هذا الخط الخفى قد عرفت، وطبيعة اللغة التى كان رمزا لها قد حققت، ولم يبق على النجاح النهائى إلا تطبيق هذه الأصول على المعضلات المختلفة معضلة معضلة.

وفى نفس السنة نشر رولنسون ترجمة تجريبية لأجزاء من نصوص كان

يدرسها من كتابة على مسلة كان ليارد قد أحضرها إلى لندن؛ وكثيرا ما كان رولنسون فى هذه الترجمة يصيب المعنى الحقيقى لعبارة من العبارات، غير أنه لم يظهر من المقدرة على إدراك التفصيلات الجزئية للمعنى ما كان أظهره هنكس فى بحثه. على أن هذه النشرة لم يكن مقدرا لها أن تكون أهم مساهمة يؤديها رولنسون فى حل رموز اللغة الأشورية؛ وإنما كان ذلك ليأتى بعد.

كان هذا البحاثة القدير لايزال يحتفظ بنسخ النص الذى على منكب



لوحة سومرية للملك أور-لينا ملك لجاش.

الصخرة التى فى بسوتون؛ ومن سوء الحظ أن كانت هذه النسخ قد أصابها العطب، ولكن القدر الذى سلم منها زود رولنسون بنص كامل بعض الشىء، وفى سنة ١٨٥١ نشر المذكرة العظيمة التى اشتملت على نص

ابلى مؤلف من ١١٢ سطر، مكتوب بحروف أوربية، ومترجم باللغة للاتينية، وأضاف إلى ذلك ثبتا موجزا للرموز ومجموعة تعليقات تناول يها مناقشة عدة أصول فى نحو اللغة وترجمتها .

وسرعان ما أثار النقاد الشكوك حول هذه المذكرة، وكان الأساس لرئيسى لتشككهم هو تلك الرموز لتى أعلن رولنسون أنها متعددة لعانى، أى أن لكل منها أكثر من يمة أو دلالة واحدة مثل ▶▬▶𒀸 لتى تدل على كَلْ، أو رِب، أو دَنْ؛ قال النقاد إنّ الغموض واللبس للذين ينشآن عن مثل هذا النظام لخطى لا بد أن يجعلا الترجمة عرضة شك، بل إن ذلك يجعل الرموز ير صالحة للاستعمال. ومع ذلك



السير هنرى رولنسن .

ان هنكس قد نشر قبل ثبتا لرموز يؤدى كل منها عدة صيغ لفظية، كما نشر سالة حلل فيها عدة استعمالات نحوية . وقد أوضح هنا أن الرموز لهجائية أو المقطعية ثلاثة أنواع تختلف باختلاف ما تدل عليه من ركة بحتة (أى حرف مد) مثل «ا» (أو علامة الفتح)، أو «ى» (أو لامة الكسر)، أو «و» (أو علامة الضم)، أو مقطع بحت مثل «اَبْ»، و «اِبْ»، أو «اُبْ»، أو «باَ»، أو «بِى»، أو «بُو»، أو مقاطع مركبة ثل «بَارْ»، أو «رَابْ» وهكذا؛ وقد عين بذلك مدلولات ١١٨ رمز من ٢٥٢ رمز التى نشرها عندئذ لأول مرة . وأوضح إلى جانب ذلك أن لفعل الأشورى يظهر فى صيغ مختلفة على حسب تصريفه فى الاستعمال، أن هذه الصيغ مشابهة لصيغ تصريف الفعل العبرى والعربى . على ن هذا العمل التحليلى الألمعى، الذى رفع حل الرموز من مستوى

الحدس والتخمين إلى مرتبة الاستنباط العلمى، لم ينجح فى إقناع المتشككين.

وفى هذه المرحلة ظهر فى الميدان بحاثة جديد اسمه تَلْبوت، وهو هاو موهوب كان قد أظهر براعة ممتازة فى فن التصوير الشمسى. وكان رولنسون قد أعد توا لوحات حجرية لطبع بعض الكتابات المسمارية التى فى المتحف البريطانى، وأرسل إحدى بواكير النسخ إلى تلبوت، فقام هذا الأخير توا بترجمة ما استطاع حل رموزه من العبارات؛ غير أنه لم ينشر هذه الترجمة بل أرسلها فى ملف مختوم إلى الجمعية الأسيوية الملكية، مصحوب بكتاب منه يقترح فيه أن تحفظ ترجمته مختومة حتى تنشر الترجمة المترقبة من رولنسون، وعندئذ تقارن الترجمتان؛ فاذا اتفقتا فى جوهرهما قضى ذلك على جميع الشكوك. وأيد رولنسون تنفيذ الجمعية لهذه الخطة، واتفق الرأى أيضا على دعوة هنكس، وأوبير العالم الفرنسى الذى كان معروفا أنه يشتغل بدراسة نفس الموضوع، لارسال ترجمتيهما مختومتين إلى الجمعية، وعند ذلك تفتح الترجمات الأربع وتقارنها جميعا لجنة خاصة مؤلفة لهذا الغرض، وتم الاتفاق على هذه الخطة، ومع أن هنكس وأوبير لم يكن لديهما من الزمن ما يمكنهما من إتمام ترجمتيهما. لقد أرسلا منهما قدرا كافيا للمقارنة المثمرة. وقد وجدت اللجنة أن الترجمات الأربع قوية التشابه بعضها ببعض فيما يتعلق بالمعنى العام للنصوص، بل كثيرا ما كانت ألفاظها متحدة فى ترجمة بعض العبارات، كما وجدت أن المترجمين كثيرا ما كانوا يعلمون نفس العبارات التى كانت ترجمتهم لها شاسعة الاختلاف باعتبارها غامضة وملتبسة فى معناها. وقد أحدث ما تلا ذلك، من نشر الجمعية الأسيوية الملكية لأربع ترجمات كل منها بجانب الأخرى، رجة ليس فى إنكلترة فحسب بل فى القارة الأوربية كذلك، كما أزال جميع الشكوك التى كانت تحوم حول صحة حل تلك الرموز.

وكان هذا المجهود، فى أحد معانيه، مجهودا دوليا، إذ أن باحثين من جنسيات متعددة كانوا قد ساهموا بنصيب كبير فيه؛ غير أنه من إعطاء

كل ذى حق حقه أن نعزو كثيرا من الفضل إلى غروتيفند الذى زود البحث بالمفتاح الأول لحل مغاليقه، على حين أن فخر الفوز بالنتيجة التى أثمرها العمل المتواصل ينبغى أن يكون دائما من نصيب، هنكس الارلندى ورولنسون الانكليزى .

وبعد ذلك تقدمت الخطوات فى سبيل حل رموز اللغتين البابلية والاشورية اللتين لم تكونا سوى اللهجتين الجنوبية والشمالية للغة واحدة؛ غير أن هذه الخطوات مع ذلك، قد قعدت عن حل المشكلة الرئيسية . وكان التنقيب قد كشف عن عدد كبير من اللوحات الصلصالية المحتوية على ما كان جليا أنه قوائم أسماء فى عدة أعمدة؛ وقد ظهر من هذه الأسماء أن الرموز التى تدل على كلمات باعتبارها مستقلة عن تلك التى تدل على مقاطع أو حروف هجائية، تمكن قراءتها بطريقتين : فمثلا

𒃲 تمكن قراءتها «گال» أو «رَبُو» ومعناها «كبير»

𒁀 تمكن قراءتها «گار» أو «شَكِنْ» ومعناها «وُضِعَ»

ومن الواضح أن «رَبُو» و«شَكِنْ» ألفاظ سامية، كما يتضح من اللفظين العربيين «رَبّ» و«سَكَنَ»؛ ولكن ما اللفظان الآخران «گال» و«گار»؟

وكان هنكس قد دلل على أن الخط المسمارى لم يكن ساميا، إذ أنه كان قليل الصلاحية للتعبير عن النطق السامى، وكانت المناقشة تدور حول إمكان أن تكون الألفاظ غير السامية (مثل «گال» و«گار») تمثل لغة أجنبية، أو أن تكون ضربا من لغة سرية من اختراع الكهنة البابليين. وكان رولنسون وهنكس هما صاحبى الرأى القائل بأنها لغة أجنبية، على حين أن هالفى الفرنسى كان يرى ويؤيد بكل قوته نظرية اللغة السرية . وليس فى تفصيلات هذا الجدل طائل كبير، إذ أن نظرية هالفى لم تجد إلا أنصارا قليلين، ثم انتهى أمرها بأن تخلى عنها جميع أنصارها ما عدا هالفى نفسه، ثم فى سنة ١٨٦٩ أعلن أوبير اسم اللغة الجديدة — السومرية . وفى سنة ١٨٧٣ نشر عالم فرنسى آخر، اسمه

لنورمان، مجموعة كاملة منظمة لقواعد نحو تلك اللغة، وكان قد استعان فى ذلك بقدر كبير من المعونة التى وجدها فى القوائم الدقيقة ذات اللغتين — قوائم الرموز والصيغ التى وضعها الكتاب الوطنيون؛ وفى سنة ١٨٧٩ نشر عالم أمريكى، اسمه هَوْپْت، نصا كاملا مزدوج اللغة محتويا على نبذ من مجموعة قوانين تتصل بنظام الأسرة . وقد أوضحت هذه المؤلفات أن الفوارق الرئيسية بين اللغة السومرية واللغة البابلية هى الآتية :

(١) اللغة السومرية تعتمد على التركيب المزجى فى تكوين ألفاظها على حين أن اللغة البابلية تعتمد على تغيير صيغ الكلمات وتصريفها فى تغيير معانى ألفاظها؛

(٢) جذر (أو مادة) الفعل السومرى غير قابل للتغيير، أما جذر الفعل البابلى فانه يتغير بتغير الحركات؛

(٣) ليس فى السومرية صيغ للتعبير عن المذكر والمؤنث، بخلاف البابلية ففيها صيغ للتذكير والتأنيث؛

(٤) حروف الجر تأتى بعد الاسم المجرور فى السومرية، على حين أنها تأتى قبل الاسم المجرور فى البابلية؛

(٥) إذا كان المفعول ضميرا أدمجته السومرية فى ثنايا الفعل، أما البابلية فانها تلحقه بالفعل فى آخره .

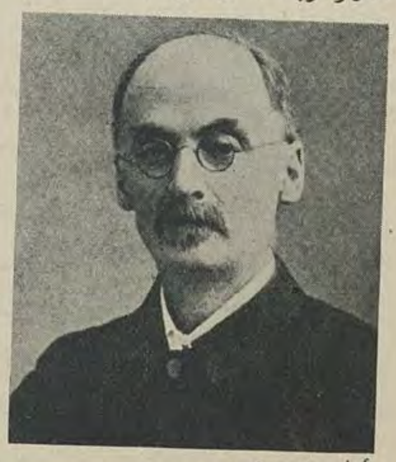
وتتفق البابلية فى جميع هذه الاعتبارات مع اللغات السامية، ولاسيما العبرية والعربية؛ أما السومرية فليس من المحقق بعد معرفة الأسرة اللغوية التى تنتمى إليها . ولعلها شوايا لغوية من العصور التى قبل التاريخ، ليست ذات صلة بأية لغة بشرية وصلت إلينا . أما أنها كانت لغة حقيقية فقد ثبت ثبوتا قاطعا من لوحة استكشفت وحلت رموزها، وهى تصف السومرية بأنها كانت لغة قائمة؛ كذلك أصبح معروفا الآن أن السومريين كانوا جنسا غير سامى سبق البابليين فى سكنى العراق الجنوبى حوالى ٤٠٠٠ سنة ق . م .

ويمكننا أن نضيف إلى هذا أن البحوث التى جاءت بعد ذلك قد دلت على أن نظام المقاطع السومرية كان فى أصل نشأته تصويريا، بمعنى أن كل رمز كان يمثل شيئا ماديا . فمثلا العلامة التى كانت تمثل جبالا تطورت إلى أو أو وأخيرا إلى على حسب المادة التى كانت تكتب عليها . وكان معناها فى الأصل كُر أى «جبل» وكانت تستعمل كذلك بمعنى «بلاد» أو «قُطر» بصفة عامة، إذ أن بلاد السومريين كانت فى الغالب جبالا؛ كذلك كان من الطبيعى أن تستعمل لتدل على المقطع كُر والمقاطع الأخرى القريبة النطق منه وهى جُر (گُر) وقُر. والكلمات البابلية التى تقابل هذه هى شَدُو «جبل»، ومَاتُ «بلاد»، وكانت تستعمل لهذه المعانى كما كانت تستعمل للمقاطع شد ومَت؛ وكما كانت تدل على هذين المقطعين كانت كذلك تدل على لَت، وشَط، ومَد، ومَط . وبمرور الزمن أضيف إليها مدلولات مقطعية أخرى، مثل كِن، ولَد، ونَت، ومدلولات شبيهة أخرى . وفضلا على ذلك انتقل استعمالها إلى أشياء مادية أخرى تشابه الشىء الأولى الذى كانت تدل عليه أدنى تشابه، مثل إِرْصَةُ «أرض»، وإيكَلٌّ «هيكل أو قصر»، ودَدْمُ «بيت»، ثم توسع فى استعمالها فاتخذت نعوتا تنطبق على تلك الأشياء، مثل دَنٌّ «قوى»، ورَبُو «كبير» . والحق أن من العسير أن ندرك كيف أن أحدا حتى من السومريين الوطنيين أنفسهم كان يستطيع فى كلامه أن يحدد المعنى الذى يقصده على حين أن العلامة الواحدة قد تدل على كثير من المدلولات التى لاصلة لأحد منها بالآخر على ما يظهر، مثل اَبْ «مسكن»، «بحر» «طريق»، وهلم جرا؛ على أن من التعليلات المقبولة أنه كان يمكن التمييز بين المعانى المختلفة، كما هو الشأن فى اللغة الصينية، بتغيير نبرات الصوت عند النطق بالمقاطع .

وفى سنة ١٨٢٧ عثر شوتس، العالم الأثرى، فى أرمينية على ٤٢ كتابة بخط مسمارى آخر، فى خرائب قلعة فان وغيرها من الأماكن فى ذلك الجوار. أما هو فقد قتل، ولكن نسخ النصوص أرسلت إلى وطنه فى باريس ثم نشرت فى سنة ١٨٤٠. وسرعان ما عرف أن ثلاثة من تلك النصوص كانت باللغة الفارسية القديمة، وأنها كانت قد كتبها إكسركسيس؛ أما التسعة والثلاثون الباقية فقد كانت بلغة أخرى مجهولة. وعثر بعد ذلك على نصين آخرين أو ثلاثة من هذا القبيل فى بقاع يبلغ بعدها ٢٠٠ ميل من فان، مما أشعر بأنها كانت من عمل قوم ذوى شأن، وإن لم يكونوا من الأشوريين كما استطاع غروتيفند أن يبرهن على ذلك سريعا.

وكان هنكس أول من حاول فك رموزها فنجح فى معرفة العلامات الدالة على «ناس» و«مدينة»، وقرأ بضعة أعلام، كما وضح أن حالة الرفع تنتهى بالحرف سَ، وأن حالة النصب تنتهى بالحرف نَ؛ وقد أيد هذا أن اللغة ليست سامية. وفى سنة ١٨٧١ أضاف لنورمان حل كلمتين أخريين، وفى السنة التالية حل مورتمان ١٢ كلمة أخرى؛ غير أنه لم تظهر ترجمة لنص من تلك النصوص.

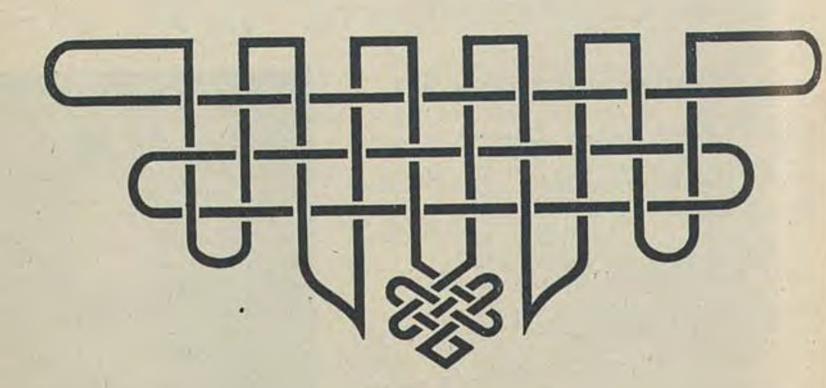
ولدى هذه المرحلة، فى سنة ١٨٨٠، اهتدى كل من غيّار الفرنسى، وسَيس الأستاذ الانكليزى بجامعة أكسفورد إلى استكشاف واحد: فقد لاحظا أن الكلمة التى معناها «لوح» كانت واردة فى آخر كثير من تلك النصوص، وتذكرا أن الألواح الأشورية كثيرا ما كانت تختتم بصب لعنة



أرشيبلد هنرى سيس.

على أى شخص يحطمها؛ فرأيا بناء على ذلك أن هذه النصوص تكون مختومة بنفس هذه الصيغة أو صيغة مماثلة لها . وتمكن سيس، معتمدا على هذا الفرض، ومستعينا بأوجه شبه أخرى بين هذه النصوص والنصوص الأشورية ولاسيما استخدام الكتابة الخيالية أو الشفاهية، من نشر رسالة عن هذه الكتابات، وصورة مجملة لنحو تلك اللغة، ثم ترجمة لعدد من هذه النصوص . وفى سنة ١٨٨٨ جمع شتات بحثه، وضم إليه نصوصا جديدة ونتائج باحثين آخرين، وبذلك أكمل حل تلك الرموز. وأخيرا أثبت هويت فى سنة ١٨٩٢ بمراجعته لبحوث سيس أن اسم تلك اللغة هو الكلدية أو الكلدانية، وهى لغة قوم كان اليونان يسمونهم الكلديين؛ وفى سنة ١٨٩٨ زار منطقة فان، وراجع النصوص القديمة وجمع بعض النصوص الجديدة التى كان من بينها بعض الكتابات الأشورية التى ترجع إلى عهود تتراوح بين القرن الثانى عشر والقرن الثامن قبل الميلاد؛ وبذلك أمكن تحديد تاريخ النصوص الكلدية على وجه التقريب .

وهكذا استرد العالم خمس لغات كان قد غطى عليها النسيان، وحلت رموزها فأرسلت أشعة من الضياء على عدة قرون من التاريخ المفقود للشرق الأوسط .



عَبَاقِرَة العَسكرِيينْ

بقلم السيد فرج

أثار المقال الممتع الذى كتبه الكابتن ليدل هارت فى مجلة «ستراند» — تحت عنوان «ما هى العبقرية الحربية»؟ — اهتمام الدوائر العسكرية وشتى المجتمعات.

وقد عقب عليه الماريشال ويفل ببحث شائق بعث به إلى «التيمس» تحت عنوان «من هو أعظم قائد فى التاريخ»؟ وصح بأنه دوق مارلبورو، و إلى جانبه بلساريوس . .

ولعله يطيب لكثيرين — فى هذا الوقت الملئ بالأحداث الحربية — أن يعرفوا شيئا عن عظماء العسكريين وما كان لهم من صفات ومواهب أتاحت لهم هذه المنزلة الخالدة وجعلتهم من رجال التاريخ.



دوق مارلبورو (Marlborough) (١٦٥٠-١٧٢٢) هو جون تشرشل القائد الانكليزى العظيم التاريخ، وجد مستر تشرشل الرئيس الحالى للوزارة البريطانية.

قال عنه ادوارد كريسى إنه أعظم القواد الذين أنجبتهم انكلترا فى كل الأزمان باستثناء ولنجتون.

جون تشرشل دوق مارلبرة الأول.

ويرى الماريشال ويفل إنه أعظم شخصية عسكرية فى تاريخ بريطانيا، ويقول «يحب الكثيرون أن يضعوا نابليون فى أول القائمة ولكنى لا أضعه فى محل مارلبورو . . . إن مارلبورو هو أعظم قائد أنجبته انكلترا وقد كان يملك الصفات التى تجعله أكبر القادة فى جميع العصور» .

وقد اشتهر مارلبورو بمعركة « بلنهايم » (Blenheim) الخالدة، وبلنهايم هى المعركة التى قوضت صرح فرنسا عندما طغت فى عهد لويس الرابع عشر – الملك الشمس – الذى كان يقول «أنا الدولة» بينما كانت فرنسا تقول «أنا العالم» !

وكانت ممالك أوربا غارقة فى مشاكل داخلية ولكن بريطانيا استطاعت أن تقضى على مشاغلها الخاصة، وحولت نظرها لمراجعة فرنسا الحساب . . .

واجتمعت الكلمة على «مارلبورو» ليتولى العمليات الحربية، فقد كان أقدر رجال عصره على تنظيم دولاب الحرب وإدارة شئونها، وكان السر فى ذلك لأوضاعه الشخصية فلم تكن تنقصه صفة من صفات كبار القادة، وكان واسع الخبرة هادئ الروح رابط الجأش، ولو ثارت البراكين !

وقد مدح فولتير فيه «هذه الشجاعة الهادئة وسط الأخطار العنيفة، والهدوء النفسانى فى غمرة الويل . . .»

وإذن، فقد كان مارلبورو هو القائد الذى اختارته العناية لقهر لويس الرابع عشر فقاد جيوش الحلفاء – انكلترا وهولندا وبروسيا – عندما أعلنت الحرب بينها وبين فرنسا فى مايو سنة ١٧٠٧ .

وكانت خطة لويس تقضى بالتزام خطة الدفاع فى هولندا على أن تعبر الجيوش الرئيسية من ايطاليا بطريق التيرول إلى النمسا فتزحف إلى فينا، وتساعد ثوار هنغاريا، وتقضى على امبراطورية ليوبولد .

ووقف مارلبورو فى المعسكر الآخر، ولم تفته خطة العدو عندما قدر الموقف ودرس أفكار الطرف الآخر، وشرع فى القيام بعملية استراتيجية فذة إذ ساق قواته بسرعة كبيرة من الفلاندرز إلى وادى الدانوب، وفاجأ الجيوش الفرنسية النازلة بين بلنهايم ولوتزجن .

وبذلك أخفقت خطة لويس ودارت معارك عنيفة أبدى فيها تشرشل من الشجاعة والحكمة ما جعله فى مصاف عظماء العسكريين، وقام بضربته الخالدة على أضعف نقطة فى خط العدو واخترقها بالمواجهة ثم دار بالجناحين فسحقهما بعد قتال فاجع . . . فكانت هذه المعركة من فواصل وقائع التاريخ .

ولو أخطأ مارلبورو تقدير موقفه لسقطت أوربا أمام آل بربون سقوطا لا قيامة بعده !

وقد قيل عن مارلبورو إنه القائد الأوحد الذى كان ابتكاره أمرا طبيعيا، ولم تكن قيادته للجنود ومقدرته فى الحرب هى كل صفاته فقد كان وزيرا للشئون الخارجية ولم تغفل عينه عن سياسة بلاده وهو فى ميادين القتال، وكان معنيا باكتساب تأييد حكومته ناجحا فى اجتذاب ثقة الحلفاء وتقديرهم .

* * * * *

أما بلساريوس (٥٠٥ ق . م .) فكان أحد قواد جستنيان، وقد امتاز بجمعه بين ملكتى الابتكار والتنظيم أكثر من أى قائد آخر، كان محاربا قديرا ومدربا ممتازا لرجاله .

وكان بلساريوس رجل سيف وسياسة ولهذا وثق به جستنيان واعتمد على بطولته وإخلاصه، كما كان يلبس مسوح السياسة حين يتباحث مع حلفاء بلاده فاكتسب ثقتهم ومساعداتهم.

ويرى الماريشال ويفل أن بلساريوس كان المثل الأعلى فى نظره، وأضاف «يجب أن أضعه فى رأس القائمة، ولو أن نابليون لا يعرفه» .

* * * * *



بلساريوس القائد الرومانى المشهور، وقد تقدمت به السن وذهب بصره وجفاه ملكه بعد ما بذل فى خدمته باخلاص وولاء .

والآن إلى الاسكندر الأكبر الرجل الذى دوخ الدنيا فى الثلاثين، والنجم الذى ما زال مضيئا فى سماء العسكرية على الرغم من آلاف السنين، القائد الذى يزهو به شباب العسكريين فى كل جيل، والفاتح الغازى لأول امبراطورية فى التاريخ، ملك مقدونيا وملك آسيا وملك بابل وفرعون مصر، وفاتح الهند، وسيد العالم، والمنتصر الذى لم يهزمه غير الموت فى ريعان الشباب.

قال نابليون عن الاسكندر «لقد عبر الاسكندر الدردنيل عام ٣٣٤ ق. م. بأربعين ألفا فدهم الفرس وغزا الأناضول وفتح سورية وأخذ مصر وطرابلس وعبر دجلة والفرات وقوض دعائم المملكة الفارسية ودخل هندستان والپنجاب ... ونشر فى كل مكان حل فيه الثقافة اليونانية، فكان بذلك من أصاب الفواصل فى التاريخ».

كان الاسكندر محاربا جسورا لا ترهبه أشد المواقف رعبا وبذلك كان خير مثل لجنوده، وقد حدث أثناء غزوه للهند أن صمد له أحد الحصون المنيعة فما كان منه إلا أن ارتقى الحصن — على ما فى ذلك من مشقة وخطر ماحق — وألقى بنفسه إلى الداخل، فتبعه جنوده كالشياطين، والموت يترصدهم من كل جانب ... وبعد قليل وصلوا إلى مكان الاسكندر وأخرجوا من جسده أربعة رماح قاسية.

فوق: الاسكندر الأكبر. تحت: هانيبال، القائد القرطاجى المشهور



وكان لبقا فى معاملة حلفائه فلما ترك مصر ولى عليها اثنين من المصريين، ولما أسر الملك پوروس فى الهند سأله عما يريد فقال «أن تعاملنى معاملة الملوك» فأجابه الاسكندر إلى ما أراد وظهرت بينهما صداقة نادرة.

* * * * *

وهانيبال الرجل الذى جعل لقرطاجنة قدما فى التاريخ، والذى كون من رجاله البسطاء جنودا أفذاذا يواجهون أعظم امبراطورية فى عصرهم.

ترك بلاده عام ٢١٨ ق. م. لأن «الاله الأعظم نادانى وأمرنى أن لا أنظر خلفى مهما حدث!» وكان غزوه لايطاليا عملا ضخما حافلا بالفعال العسكرية الممتازة، فاذا كان التاريخ قد سجل هذه الفعال فى أسطع صفحاته فلأن هانيبال كان استراتيجيا لا مثيل له، وكان مناورا خطرا... وقتاله فى «كانا» نموذج يصلح لأوقاتنا هذه.

ولهذا يرى الكابتن لدل هارت (Liddell Hart) أن أى قائمة لكبار العسكريين لا يمكن أن تخلو من اسم هانيبال.

ويقول الماريشال ويفل «يجب أن يوضع هانيبال فى مكان بارز بين أبطال الحرب من الناحيتين التكتيكية والاستراتيجية، وقد كان مدربا فنانا للجنود».

وقد كانت حروب هانيبال كثيرة المشقة حافلة بالصعوبات، فكان بذلك المثل الأعلى للمثابرة والصلابة والقدرة على تحمل أعباء الحرب.

انظر إليه وهو يعبر نهر الرون... وأى عبور! فقد كانت حملته مشاة وفرسانا وفيلة على ذات الواح ودسر فكان يشترى مراكب الأهالى ويقطع الأشجار ليصنع العوامات الكبيرة لتعدية الفيلة، ثم يغطى هذه المعابر بالتراب — كأحدث عمليات التمويه — لأن الفيلة تخاف الماء!

كان هانيبال فى حرب، وبلاده لا يهمها أن تحارب، ومع ذلك عبر

جبال البيرنيز والألب – لأول مرة فى التاريخ – وهبط على سهول لمبارديا، وضرب الجيوش الرومانية فى ترابيا، ثم عبر جبال أپنين وكسب انتصاره الخالد فى «كانا» وهو يقود نصف ما يملك عدوه من رجال وأقل من مستوى النصف فى المعدات والآلات .

* * * * *

وهذا هو نابليون بونابرت الذى حارب أوربا عشرين عاما الكورسيكى الفذ الذى كتبوا عنه آلاف المجلدات، وأعيد طبع أكثرها عدة مرات . . . وهو الذى وصفه چاك بانفيل بأنه «اللاعب الذى كان يحرك الملوك والشعوب على رقعة الشطرنج . . . منشئ الأمم، جامع الأجناس، وواضع تصميم أوربا الحديثة» . إنه رجل «مارنجو» و«اوسترلتز» وفيهما مجموعات من نتاج العبقرية العسكرية لهذا الجنى، مارد الحرب .

كان نابليون دارسا بالشعور والعواطف التى تؤثر فى الرجال فهو لم يحصل على مكانته بسبب مقدرته الحربية ولكن بدراسته للطبيعة البشرية، وأهم ما فى نابليون ليس معاركه العظيمة، ولكن فى أن

تقهقر نابليون من مسكو سنة ١٨١٤ . من صورة ذائعة الصيت .




الدوق ولنجتون .

قائدا مجهولا حديث السن يخلق من جيش ضعيف مثل هذه القوة الهائلة التى حاربت العالم، وفى أنه قاد قادة أكبر منه عمرا وأكثر تجربة وسطوة !

ولهذا يعده الكثيرون المثل الأعلى للبطولة، ويتغنون بمنظره وقد وهب جنوده نفسهم له كى ينتقل على أكتافهم إلى ذروة المجد، فاذا سقط جندى تغنى باسم نابليون قبل أن يسلم الروح .

* * * * *

واخيرا — وليس آخرا — ولنجتون، شيطان نابليون .

الرجل الذى عبر القارة ليوقف الطوفان . . . وكانت أوربا قد غطيت بالدماء وامتلأ جوفها بالاشلاء . . . فرفع يده فى وجه نابليون وقال: كفى !

وكان نابليون قد عاد من البا فعاد البركان إلى دمدمته، وعاد سيل الدماء، واصبحت اوربا فى خوف فاجع ومشقة موئسة . . . وقال ولنجتون :

يا رجالى، اليوم يومكم . . . ماذا سيقولون عنا غدا فى انجلترا .

ودارت رحى الحرب واخذ المجد والهلاك يتصارعان أمام عينى ولنجتون، ومصير اوربا معلق بثباته . . . ولكنه كان قوى العزم جبارا لا يعرف غير « الثبات حتى نفوز أو يهلك آخر رجل منا » .

ولما قاربت المعركة النهاية كان بين الجنود والرصاص يدمدم فوق رأسه، نسى كل شىء فقد كان يحارب « قائد الدنيا » ويود أن يقهره وينتهى منه إلى الابد . . . فتوسل اليه ضباطه أن يحافظ على حياته، فصاح ينهم :

« لاضرورة لحياتى بعد اليوم، فقد ربحت المعركة »

وأى معركة . . . ! فقد انتهى نابليون، وتغيرت الدنيا .

الدارج والفصيح في اللغة الانجليزية

بقلم اريك بارتريدج

من أكثر من قرن من الزمان علت الاحتجاجات ضد استعمال اللغة السوقية واشتد الجدل حول علاقة هذه باللغة الأدبية أو كما تسمى الآن الانكليزية الفصحى . فالمتمسكون بوجوب نقاء اللغة هبوا ساخطين والمحافظون نهضوا فى أنفة وشمم يدافعون عن حصن النقاء اللغوى — وما أشبهه بحصن الباستيل — ضد الغوغاء والأوشاب الثائرين . وإن عنف الهجوم وصلابة الدفاع لكفيلان بأنه لن يبقى إلا الأصلح وأن هذا سيقتحم القلعة وهناك ترسخ قدمه ثم يصبح بدوره محافظا ومتمسكا بالنقاء اللغوى .

ولكن نفرا من المتبارزين ليسوا يعرفون معرفة وثيقة فيم تبارزهم وعلام تخاصمهم بل هم لا يعرفون عم يدافعون . فليست لديهم فكرة واضحة عن كنه الانكليزية الفصحى، وليس لديهم إلا فكرة مبهمة جد الابهام عن كنه السوقى . بل إن كثيرا من القواميس المعتبرة تحدد هذه المعانى تحديدا لا يشفى غليلا . فكاتب هذا المقال (وهو فى سلاح الطيران الملكى) ليس فى متناول يده إلا قاموس واحد — ويا له من قاموس ! — يعرف السوقى بأنه : تعبيرات فى الاستعمال الدارج العامى أى المتخاطب به ولكن لا تعتبر انكليزية فصحى . فهذا التحديد ليس كافيا وما يقرره قد يؤدى إلى الاختلاط والزيغ .

---

(١) هو الأديب والعالم اللغوى المشهور الذى يعد حجة فى الأبحاث اللغوية وله مؤلفات مشهورة قيمة منها «الشعر الرومانتيكى الانكليزى فى القرن الثامن عشر» و«معرفة الأدب الانكليزى» و«مرشد إلى الانكليزية الفصحى» و«قاموس للانكليزية السوقية وغير النحوية» .

لكى يوضح كاتب هذا المقال ما يعنى توضيحا تاما فانه سيسلك أقصر السبل وأسهلها، وهى أن يبدأ بأن يكون استبداديا بل أوتوقراطيا فى تحديده ثم يشرح ما يعنى بعد ذلك .

كل لغة متحضرة مكونة من طبقات يعلو بعضها بعضا من وجهة القداسة . فهذه الطبقات فى اللغة الانكليزية تشمل الدرجات التالية مرتبة ترتيبا تصاعديا بحسب ما لها من الجلال والاعتبار :—

١ — الرطانة Cant .

٢ — السوقية Slang .

٣ — العامية Vulgarisms بمدلوليها الشائع والمبتذل .

٤ — الدارجة Colloquialisms .

٥ — الانكليزية الفصيحة Standard English بأنواعها الثلاثة التصاعدية وهى :

ا — الانكليزية المألوفة Familiar English .

ب — الانكليزية الفصيحة العادية Ordinary Standard English.

حـ — الانكليزية الأدبية أو الفصحى Literary English .

أما اللهجات الاقليمية فان علينا أن ندعها جانبا إذ ليس لها محل صحيح من هذه الطبقات لأنها بدائية ومحلية . ولكنها مع ذلك أحد المنابع التى تستمد منها الانكليزية الفصيحة .

فأما الرطانة — أوكما تسمى بوجه أعم «لغة العالم السفلى من الناس» — فهى المفردات الخاصة — أو هى بالأحرى مجموعات عدة متشابكة من المفردات — للمجرمين والمتشردين والشحاذين، ولمن يتعلقون بهم ويخالطونهم ويعيشون باستغلالهم .

وأما السوقية فانها ربما تستمد بعض مواردها — بل إنها لتستمد بعض مواردها — من لغة العالم السفلى . ولكنها فى العادة تبقى مستقلة بذاتها مستغنية بنفسها، حتى يحدث لها أحد أمرين : إما أن تموت هزالا أو عياء أو بسبب تبدل الأذواق، وإما أن تبقى بقاء قويا يؤدى

إلى اعتمادها واعتبارها دارجة فتخضع للعوامل التى تؤثر فى الدارجة وتتحكم فيها .

وأما الدارجة فهى فى منتصف الطريق بين السوقية والانكليزية الفصيحة . فهى تعتبر أكثر جدارة بالاحترام والبقاء من السوقية، ولكنها أقل اعتبارا وأقل جلالا من الانكليزية الفصيحة . وهى تسمى دارجة لأنها عمومية وكافية فى الحديث ولكنها لا تكاد تكون صالحة للأمور الجدية من كتابة وخطابة ومحاضرة . وهى يستعملها عدد من السكان أكبر من مستعملى السوقية .

وأما الانكليزية الفصيحة فهى تلك التى تعتبر لائقة ومحترمة، ذات صلاحية ووقار، فى كل الأحوال . ثم إنها بنوع خاص تشمل كل لغة تجمع ين الصلاحية واللياقة فى كل المناسبات الجدية وفى التكاتب مع الأجانب . وأحسن أنواع هذه الانكليزية الفصيحة وأكثرها عموما هو ذلك النوع الذى ليس حرا خاليا من التكلف (وهو الانكليزية المألوفة)، وليس رفيعا (الانكليزية الأدبية) . فالانكليزية المألوفة هى ما هو صالح وطبيعى فى التبادل العادى للحديث والمكاتبة . والانكليزية الأدبية هى ما يستعمل ى المناسبات الجليلة أو البالغة الأهمية، فى الفصاحة المحتفلة المقصودة، وفى لكتابات الشديدة الفلسفة أو البالغة الجمال، أو حيثما يشعر الكاتب بأنه كى يوفى الموضوع حقه يجب عليه أن يستعمل أسمى لغة . وواضح أن لحدود الفاصلة بين الانكليزية المألوفة، والانكليزية الفصيحة العادية، الانكليزية الأدبية، كثيرا ما تكون مبهمة غير صريحة . هذا والاختلافات ين هذه الأنواع الثلاثة أقل أهمية من الاختلافات بين الرطانة والسوقية، و بين السوقية والدارجة، أو بين الدارجة والفصيحة .

ولكن ما شأن العامية؟

العامية نوعان، لغة الأميين الجهلاء، واللغة البذيئة . فالأولى يستعملها إلا الأميون، أى أنها استعمال الكلمات والجمل استعمالا ير صحيح . وأما اللغة البذيئة فواضح أنها تعبيرات يتجنبها المؤدبون

وذوو الحسمة، أو هم على الأقل يجتنبونها فى المجتمع المؤدب المحتشم. فهذه التعبيرات ليست أمية، بل هى قد تكون انكليزية جيدة، ولكن تداعى الخواطر والعرف الاجتماعى تقضى بتجنبها فى المجتمع المؤدب. فمثلا كلمة pluck كانت فى زمن مضى سوقية وعامية أيضا (كانت إذ ذاك تقابل «صفاقة» أو «تلامة» وهى الآن تقابل «جسارة» أو «جراءة»). وكذلك كانت الكلمة الأخرى المرادفة لها وهى guts سوقية وعامية معاً (معناها الأول المعى والمصارين وترمز إلى الجراءة والاقدام) ففى الطبقات المتصاعدة قد يحكم على العامية بوضعها فى درجة مساوية للسوقية أو يبلغ انخفاضها أقصاه حين توضع فى مكان ما بين الرطانة والسوقية.

لكن هذه التعميمات تظل غامضة وتعسفية إلا إذا قدمت أمثلة لها. فهى بدون الأمثلة كلا شىء، بل هى لا شىء. حين يتحدث ديكنز عن cracking a crib (اقتحام بناية لسرقة محتويات معينة بها) فانه يستعمل رطانة. وبهذه المناسبة نقول إنها رطانة بائدة لا تستعمل الآن. وحين يستعمل روائى أو صحفى فى القرن العشرين التعبير wide boys (معناه خليعون أو فتيان جامحو الأهواء) فهو أيضا يستعمل رطانة. وإذا أشرنا إلى شخص ما بأنه «سمكة غريبة queer fish» (معناه شاذ الطباع أو غريب الأطوار) أو بأنه rum fellow (نفس المعنى السابق)، فنحن نستعمل تعبيرين سوقيين، إذ يكاد يفهم كليهما كل إنسان، فهما ليسا قاصرين على العالم السفلى، بل هما فى الحقيقة لم يعودا يستعملان فى العالم السفلى. وحين يصف رجل فى سلاح الطيران نفسه بأنه penguin (طائر البطريق وهو لا يستطيع الطيران لعدم صلاحية أجنحته) فهو يلجأ إلى تعبير سوقى خاص بسلاح الطيران، وكل ما يعنيه هو أنه عضو من الأعضاء الذين يشتغلون على أرض المطارات ولذلك لا يقوم بالطيران. وإذا كان من سلاح الطيران بنيوزيلندة وصف نفسه بأنه Kiwi (طائر خاص بنيوزيلندة لا يطير لشدة قصر جناحيه). وإذا وصفك أحد بأنك «راجل طيب a good chap» أو بأنك «عندك ذوق

« a decent fellow » فهو يستعمل لغة دارجة، والتعبير الأخير أخذ من بضع سنوات يتصاعد إلى مرتبة الانكليزية المألوفة ولكنه لم يبلغها بعد . أما «رجل لطيف a nice man » أو «رجل مهذب a decent man » فهى انكليزية فصيحة . وإذا قلت «تعالى يا صبية come, lass » فأنا استعمل انكليزية مألوفة، و إذا قلت لها «يا فتاتى العزيزة Dear girl » فأنا استعمل انكليزية فصيحة عادية، و إذا قلت «تعالى ياغادتى الحسناء Come, sweet maid » فأنا أستعمل الانكليزية الأدبية . ولكن إذا وصفتها بأنها «عروسة Jane » أو «هانم dame » فأنا أستعمل لغة سوقية . أما إذا وصفتها بأنها moll (رفيقة مجرم) فأنا أستعمل رطانة . وأما إذا وصفتها بأنها — كلا ! لعله خير لى ألا أذكر الألفاظ المبتذلة التى توصف بها فتاة أو امرأة !

يتضح مما سبق أن بعض هذه الكلمات والتعابير قد طرأ عليها تغير فى المرتبة منذ استعملت لأول مرة . هذا التغير فى المرتبة، هذا التغير فى المعنى والقيم، هو شىء يطرأ على اللغة كلها، يطرأ على كل لغة على وجه العموم، وعلى اللغة السوقية على وجه الخصوص . ثم إنه يبين، أو على أقل تقدير يتضمن، حقيقة وعاملا يؤثران، بل يتحكمان، فى مسألة صلاحية السوقية للاستعمال فى الانكليزية الفصيحة وفى المسألة المتعلقة بهذا وهى تأثير السوقية على الانكليزية الفصيحة . هذه الحقيقة وهذا العامل هى أن اللغة مثل الحياة نفسها، إذ هى منها بمثابة المرآة وبمثابة الوسيلة الرئيسية للاتصال، فكما أن الحياة ينبغى ألا تقسم إلى أقسام تفصلها حواجز، فكذلك اللغة لا يصح أن تقسم إلى أقسام تفصلها حواجز، اللهم إلا لأغراض فلسفية أو تحليلية منطقية . لأن هذه التقسيمات لا تطابق الحقيقة والواقع . فان هذه الأقسام يتداخل بعضها فى بعض، فى مواضع كثيرة العدد، تداخلا لا محيد عنه . ذلك أن كل كلمة جديدة إما أن تموت أو أن تعيش . فان هى عاشت أخذت تكتسب جلالا واعتبارا، وأخذت تصير مقبولة، فصارت جزءا من اللغة الفصيحة . وحتى الكلمة

الجديدة التى لا هى رطانة ولا سوقية ولا دارجة، ولا هى لهجة محلية ولا عامية، أى بعبارة أوجز كل كلمة جديدة فى اللغة الفصيحة نفسها، تقابل بالارتياب أو المظنة أو الكراهية . هذا ما يحدث لكل كلمة جديدة كائنا ما كانت، حتى لو بدأت حياتها فى المرتبة الفصيحة . فهى على أحسن تقدير بدعة، أو قد ترمى بأنها لغة اصطلاحية، أى جزء من الرطانة العلمية أو الاصطلاحات التخصصية . ومرور الزمن هو وحده الذى يجعلها مقبولة عموما ولغة فصيحة غير ظنينة وغير مشكوك فيها . فكل كلمة تبدأ حياتها كبدعة أو ككلمة محدثة . فان هى كانت رطانة بدأتها كدخيل مشين، وإن هى كانت سوقية بدأتها كشىء غير تام الصلاحية واللياقة . ولكن ما أن تصل كلمة إلى مرتبة اللغة الفصيحة — وهى مرتبة يوصلها إليها قبولها والاعتراف بها كأصلح كلمة للتعبير عن الشىء أو العمل أو الحالة أو الظرف الذى وضعت له — نقول : حين تصل إلى هذه المرتبة، فان المتمسك بنقاء اللغة نفسه، إن كان صادقا مخلصا، لا يستطيع إلا أن يعترف بها . إذ لم يعد له أن يحكم لها أو عليها .

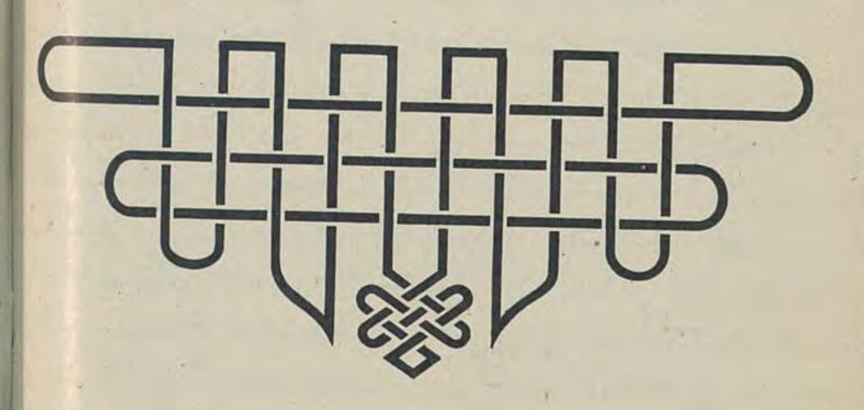
فلنضرب لذلك مثلا متطرفا، مثل كلمات ارتفعت من الطبقة السفلى (الرطانة) إلى الطبقة العليا . ولنذكر أيضا كلمات بدأت سوقية ووصلت إلى المرتبة الفصيحة إما وصولا بطيئا تدريجيا أو بقفزها الحواجز قفزة مدهشة وإن كانت بحكم الظروف طبيعية لا محيد عنها . فاذا استعملنا كلمة « شاذ queer » فى قولنا «هذا شىء شاذ » أو «هو رجل شاذ» فهذه كلمة فصيحة، وقد صار اعتبارها فصيحة منذ قرن من الزمان. ولكنها فى القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر كانت جزءا من لغة العالم السفلى . وهى لا تزال رطانة إذا استعملت بمعنى النقد المزيف . وفى الأصل كانت queer تعنى «لا قيمة له، حقير، رخيص، ردىء» . وفى صعودها فى طبقات المجتمع وفى طبقات اللغة غيرت من معناها بعض الشىء حتى صار معناها الغالب « شاذ، غريب » ولكنها فى أغلب الحالات تتضمن معنى «خارج عن المألوف» بل «غير حسن» .

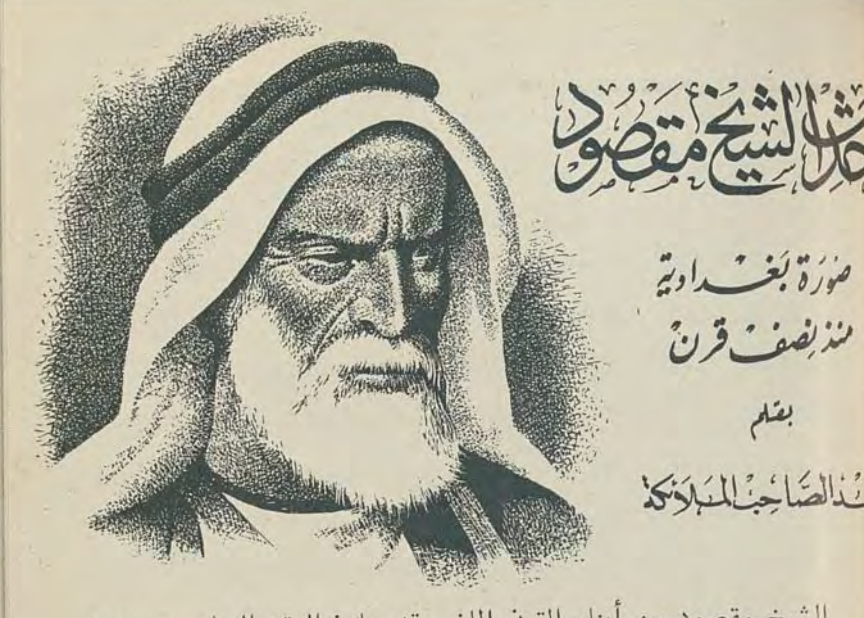
وفيما بين القرن السادس عشر ومنتصف القرن الثامن عشر كانت queer ضدا لكلمة rum، وكان معنى الأخيرة إذ ذلك — أى حين كانت لا تزال رطانة — قيم، ممتاز، نفيس، جيد . ولكن rum لا تزال سوقية لم تترق من هذه الطبقة بعد . أما السبب الذى جعل كلا من queer و rum يعنى الآن «غريب، شاذ» فهو قصة أخرى، قصة شائقة داخلة فى علم المدلولات اللغوية . وكلمة booze، ومعناها مشروب أو شراب روحى، ظلت قرونا عدة جزءا من لغة العالم السفلى، ولكنها الآن سوقية وعامية .

وهكذا بينما استغرقت كلمة queer قرونا فى تحولها من رطانة إلى سوقية، واستغرقت جيلا على أقل تقدير فى ترقيها من السوقية إلى الفصيحة، إذ بكلمة « بليتز blitz » ترتقى فى ظرف ثلاث سنوات . وهى كلمة ألمانية معناها بالألمانية « البرق »، و«بليتزكريج Blitzkrieg » هى الحرب الخاطفة أى التى تشن بسرعة البرق . وسرعان ما استعملت الكلمة كاسم فى السوقية الانكليزية معناه «تدمير من الجو بالقنابل »، وما جاءت سنة ١٩٤٢ حتى صارت دارجة، وما زالت حين تؤدى هذا المعنى تعتبر دارجة . ولكن اسم العلم «البليتز» صار منذ أوائل سنة ١٩٤٣ مقبولا — أى انكليزيا فصيحا — للدلالة على رمى الألمان للمدن الانكليزية بالقنابل فى ١٩٤٠—١٩٤١، كما قبلت عبارة «بليتز لندن» لرمى لندن بالقنابل الذى دام من أوائل سبتمبر ١٩٤٠ إلى آخر مايو ١٩٤١ . أما استعمال كلمة «بليتز» كفعل، بمعنى « يقذف قنابل من الجو على مكان ما » فانه لم يصل بعد، وليس من المحتمل أن يصل، إلى مرتبة الانكليزية الفصيحة، ذلك أن استعمال الكلمة كفعل لا يعنى أكثر من قذف القنابل على مكان ما، وهذا يمكن التعبير عنه بالانكليزية، فليس الفعل زيادة لازمة ولا هو زيادة مفيدة إلى الانكليزية . فلا زال هذا الفعل يعد سوقيا، ومن الراجح أنه فى العام القابل سيصير دارجا، وسيبقى، فى أغلب ظنى، دارجا .

أما المتمسكون بنقاء اللغة فقد احتجوا على استعمال كلمة « بليتز »، لكن احتجاجاتهم كانت بدون جدوى فيما يتعلق باستعمالها كاسم، أما فيما يتعلق باستعمالها كفعل فان ما وهبه الشعب الانكليزى من رجاحة العقل وحسن التمييز، وليس تلك الاحتجاجات، هو الذى قرر إبقاء هذا الفعل فى مرتبة السوقى .

فذو العقل الراجح يعارض إدخال كلمة غير لازمة أو غير مفيدة إلى اللغة الفصيحة، ولكنه يرحب بكلمة لازمة مهما كان أصلها . ولكن القرار النهائى فى قبول الكلمة أو رفضها يرجع إلى شعور الناس فى مجموعهم . ولكنهم أحيانا لا يصدرون قرارا، بل يبدو وكأن الكلمة أو العبارة قد تسللت خفية إلى الانكليزية الفصيحة فاحتلت فيها مكانا، لأنها مطابقة لعبقرية هذه اللغة لائقة بها منسجمة معها، فكأنها تهبط إليها من السماء .





حديث الشيخ مقصود

صورة بغدادية منذ نصف قرن

بقلم

الأستاذ الصاحب الملائكة

الشيخ مقصود من أبناء القرن الماضى قد جاوز العقد السابع من عمره المديد، موفور الصحة ملىء بالحياة لا يشكو مرضا ولا يتبرم ولا يتسخط، لا يبدو عليه من أعراض الشيخوخة غير الهدوء والاطمئنان يشع منهما نور الايمان من عينيه ونور المشيب من لحيته. كان نظيف الثياب دائما معطر الجسم أبدا. راضيا هانئا قانعا. إذا تحدث عن الماضى السعيد غمرته موجة من الذكريات فبدت عيناه حالمتين وخرج صوته موسيقيا وكأنه لحن الأجيال وأفاض على الجو كهربة من سحر بيانه لا يملك سامعه أمامها إلا أن يصغى بسمعه وبقلبه فلا ينتهى من حديثه حتى يشعر السامع وكأنه انتبه من حلم لذ أو هبط من سماء الذكر أو أضيئت الأنوار فى الخيالة فجأة بعد انتهاء مشهد مؤثر. ولقد تهيجه الذكرى أحيانا فتتقد عيناه ويلقى الكلام ملء فيه مليئا بحيوية الشباب، وقد يتبسط أحيانا فيلقى النكتة المستملحة وينطلق أثرها ضاحكا بمرح الأطفال، ثم سرعان ما يعود إليه وقار الشيوخ فيلقى الحكمة تلو الحكمة والعظة إثر العظة.

قال الشيخ مقصود بعد أن تململ قليلا فى مجلسه يزحزح إبريق القهوة من النار المتأججة فى إحدى ليالى الشتاء :

كنت اشتريت هذه الدار منذ نيف وأربعين سنة من شخص لم يكن

موجودا فى بغداد يوم ذاك، ذلك أنه كان طريد ثأر علقه برقبته أبوه الذى كان قد قتل شخصا من عائلة مجاورة، ولم تكن السكنى يوم ذاك فى هذه الضواحى البعيدة من بغداد (وهى ما نسميها اليوم بالكرادة الشرقية) ميسورة هينة، فلم يكن حبل الأمن موصولا ولا كانت السلامة مضمونة، وكان أن سخر منى القوم عندما تركت المدينة لأقيم مع عائلتى فى هذا البلقع النائى . وما هذا البلقع النائى سوى أجمل بقعة على شاطئ دجلة تحفها البساتين الغنية بشتى الفواكه والأثمار . واشتريت الدار بعشرين ليرة ذهبية، أرسلت إلى بلدة الصيرة حيث يقيم صاحبها الفار، وهكذا تمت عملية البيع والشراء دون تسجيل بدائرة الطابو أو سواها على أن يتم ذلك حين تسمح الظروف لصاحبها أن يظهر آمنا فى بغداد . ومرت على ذلك عشر سنوات .

وكان الأمن بعد ذلك قد استتب وتوطدت أركانه فى عهد الوالى (ناظم باشا) فامتد العمران وارتفعت أثمان الأملاك حتى فى الجهات النائية، فحدثت الرجل الذى توسط فى بيع الدار وأعربت له عن رغبتى فى إتمام معاملتى التمليك وتحويل الدار باسمى رسميا، فوعدنى بالسعي فى ذلك، بعد أن ذكرنى بصعوبة إحضار صاحبها إلى بغداد .

وفى مساء يوم قائظ شعرت بحركة فى البستان المجاور، فتناولت سلاحى وخرجت للبحث ،ولمحت بين الأشجار شبحا يتسلل بحذر . صرخت به فوقف، وتقدمت نحوه فاذا به شخص رث الثياب زرى الهيئة زائغ البصر، شارد اللب . وقبل أن أسأله شيئا حيانى باستحياء، فرددت ثم أعلن أنه فلان بائع داره التى أسكنها . وبعد أن تأكدت من صحة مدعاه على طريقتى الخاصة دعوته إلى البيت . وبات ليلته فى الدار إذ رآها أكثر أمنا له . وخرج فى الصباح الباكر على أن يعود إذا أظلم المساء، ويقضى نهاره فى البستان المجاور . وعدت ذلك اليوم من عملى فى المدينة قبل المساء لأطلب إلى الوسيط إتمام تسجيل الدار . فلم أشأ أن أكلم بائعها فى ذلك بنفسى وهو ضيفى .

لم تكن زوجتى على ما أعهد من الانبساط والهدوء . كانت ساهمة قلقة ولما سألتها عما بها قالت :

«لقد رأيت هذا اليوم ما لم أكن أتوقع، فلم تعد هذه دارك بعد اليوم . » قلت، «وما ذاك ؟ » قالت « كنت واقفة فى الشباك المطل على البستان فرأيت ضيفنا الكريم مع ثلاثة آخرين بينهم من يشبه السمسار يساومونه على الدار . ولم أسمع حوارهم بالضبط، ولكنى رأيت بأم رأسى بين أيديهم ما لا يقل عن مائتى ليرة ذهبية » .

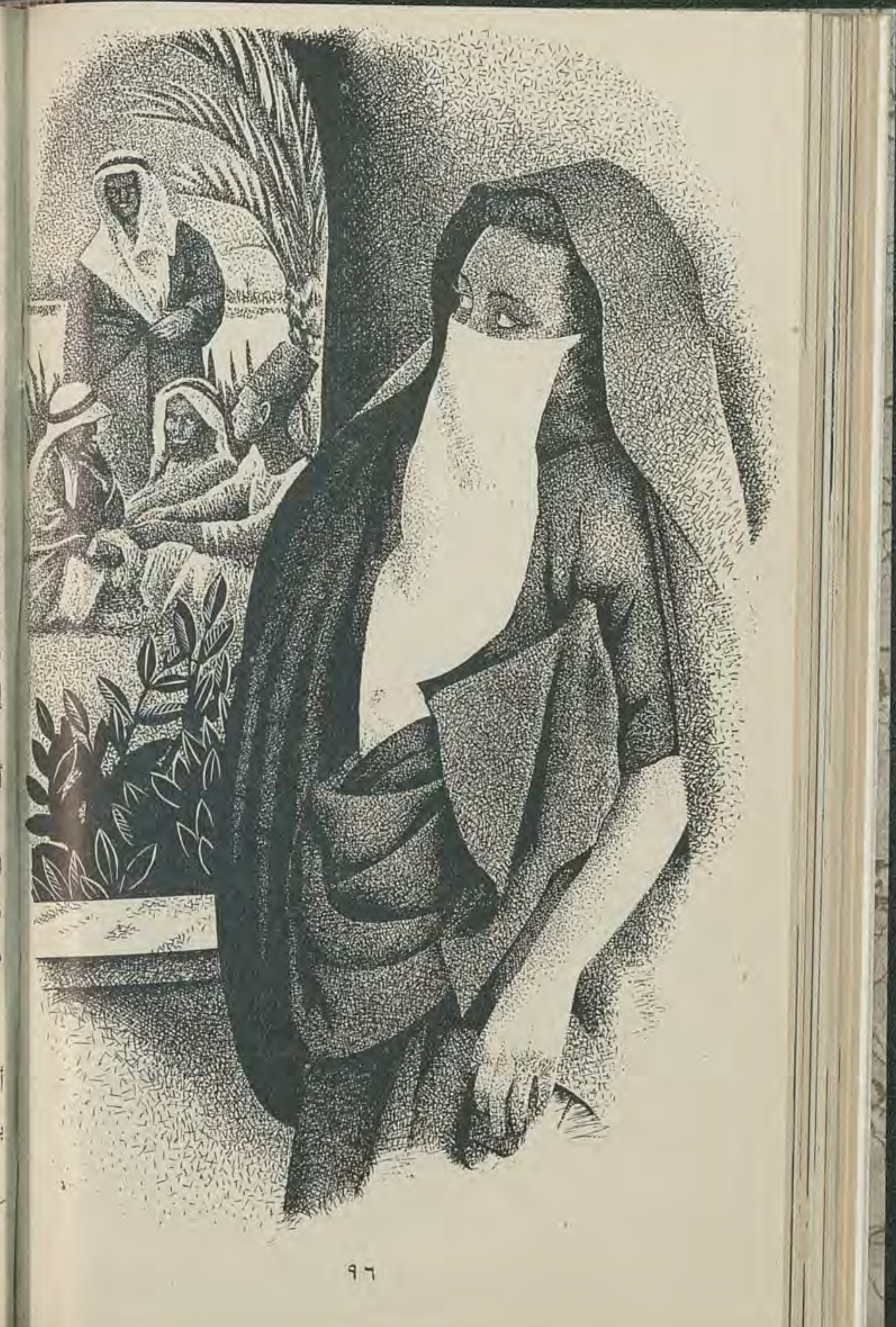
ومرت بعيد الغروب أسراب الطيور ذاهبة إلى حيث لا أدرى وهى تملأ السماء عديدا وضجيجا، ثم نشر الظلام جناحيه على الأكوان فبرز ضيفنا من جوفه وكأنه السر المكنون، فحييته وبالغت فى إكرامه وبقينا نسمر فى سطح الدار حتى اعتلى القمر عرش السماء .

فالتفت إلى جليسى فلحظت على فمه طيف ابتسامة إذ كان يقول : «لقد آن لى يا شيخ أن أصارحك بما جئت من أجله . وأنت تعلم ما يحيطنى هنا من المهالك والمخاطر، فمنذ عشر سنوات قبضت فى بلدة الصيرة عشرين ليرة ذهبية ثمنا لهذه الدار غير أننى لم أقم حتى الآن بتسجيلها باسمك رسميا فهى لا تزال باسمى .

ولما رأيت أننى عرضة إلى الاغتيال فى كل لحظة غامرت بحياتى وجئت لأقوم لك بما يجب من إتمام التسجيل والتمليك خوفا من أن يعاجلنى الموت فيتصرف أحد بعدى بغير العدل وأكون مسؤولا أمامك وأمام الله يوم الحساب . وها أناذا أمامك الآن، فما عليك إلا أن تهىء السبيل وتضع الخطة مع مراعاة ما يلزم من الحيطة والحذر من جهة الجمهورى وليقض الله بما يشاء . » فما زدت على أن شكرته وقلت :— «هذا ما كنت آمل وأرجو منك . »

وفى الصباح قالت زوجتى : «خذ حذرك واحزم أمرك، فما أراها إلا خدعة أو مناورة لا يراد بها إلا إغفالك . »

وفى بغداد ذهبت إلى سراى الحكومة وقابلت موظفا من أصدقائى



هناك وعرضت عليه الأمر فوعدني باخفاء الطريد عنده حتى يتم أمر
لمعاملة . ثم أحضرت زورقا واشتريت من السوق عباءة وكوفية وعدت
ذلك اليوم إلى بيتى فى ضاحية الكرادة عن طريق النهر . وصلت بعد
هبوط الليل فوجدت صاحبنا قد عاد إلى الدار . وبعد العشاء أخبرته بما
تم وأعلمته بأننا سنذهب بالزورق قبل الفجر الى السراى عن طريق
النهر، فلا يعلم به أحد، ثم قدمت إليه العباءة والكوفية وأنا أرجوه أن
يرتضيها هدية منى، فما راعنى إلا بريق خاطف فى عينيه وانتفاضة عجيبة
فى جسمه إذ كان يقول : «ولم ذاك ؟» قلت :— «لا يليق بك أن
تذهب إلى السراى هكذا دون عباءة . وهذه الكوفية قد بليت ورثت
وأنت هنا لا يسعك الاتصال بأحد . » قال :— «حقا . وبكم أخذتهما ؟ »
قلت :— «بأربعة مجيديات . » قال :— «اعلم أننى لا آخذها منك هبة
بأية حال كما لا يسعنى أن أدفع ثمنهما نقدا فلا يمكن قبولهما بغير حالة
واحدة وهى أن أرسل إليك عوض الثمن قمحا وعدسا وسمنا حال عودتى
إلى الصيرة فان وافقت بها وإلا فلا . »

ولم يسعنى إزاء إصراره الذى كان يظهر فى عينيه ونبراته إلا أن
أوافق على معروضه فوافقت .

وقبيل الفجر ركبنا الزورق . وكان السكون قد عم الكون حتى
كأنك تسمع خرير الماء هديرا . وفى مصافحة رخاء النسيم لصفحة الماء
دوى الأمواج المتلاطمة . وكان لصوت مجذافينا، وهما يدفعان الماء إيقاع
موسيقى . . . وقلت فى نفسى :—

«وهل كانت زوجتى مصيبة بقولها إنها مناورة أو مؤامرة ؟
وهل اشتركت بنفسى فى تدبير مؤامرة لا تدور رحاها إلا على؟
هل تنزه هذا العامى الطريد عن الطمع الانسانى ؟ بل كيف لا يخطف
بصره بريق الذهب ولا يصم رنينه أذنيه عن سماع صوت الضمير؟ »

ووصلنا السراى . وبعد ساعة وصل صديقى الموظف إلى ديوانه . وبينما
كنت مشغولا بتهيئة الأوراق اللازمة والأضابير حانت منى التفاتة

فرأيت صاحبي بائع الدار يتحدث مع أشخاص ثلاثة أحدهم يشبه السمسار بيده أكياس ثلاثة مليئة بالمال .

فساورتني الشكوك والريب وكدت أومن بما قالته زوجتي . . . وعدت إلى صديقي الموظف فوافاني ضيفي هناك ولما سألته عن شأن هؤلاء الثلاثة قال إنهم من معارفه القدماء يتحدث معهم في شؤون خاصة، فزادني كتمانه شكا وأيقنت بغدره وسوّلت لي نفسي أن أشي به إلى خصومه الذين يطلبونه بالثأر، ثم تذكرت أنه ضيفي ولائذ بي، فاعترك في نفسي عاملان، عامل الدفاع عن النفس وصيانة الحقوق وعامل رعاية الذمة وحفظ الجوار وبقيت نهب الهواجس حتى أذن مؤذن الظهر وكدت أخرج إلى الصلاة لولا أن دعاني أحد الموظفين معلنا نجاز القضية وتوقفها على التوقيع، فذهبت مع صاحبي وأنا عظيم الشك بوفائه بالعهد، أكاد أوقن بتواطئه مع الآخرين . فما راعني والله إلا إمضاؤه جميع الأوراق بكل هدوء واطمئنان .

وفي مساء ذلك اليوم وكنا سوية في الدار قال الرجل « الآن قد اطمأنت نفسي فلن أموت وبرقبتي حق لأحد » قلت باسما : «ولكن بقى لك حق على » قال : « وما ذاك ؟ » قلت . «هذا . » وناولته صرة فيها عشرون ليرة ذهبا، فما زاد على أن ردها وهو يقول : «وكيف ترضى لي أن أبيع ديني بدنياي أو أن أرضى ثمنا لوفائي؟ ألا فاعلم أن فلانا وفلانا عرضا على مائة وسبعين ليرة أجرا لهذه الدار» قلت :— «قد علمت ذلك» قال «ولكنك لم تعلم أنهما هدداني بالوشاية بي إلى من يطلبني بالثأر إذا أنا أبيت إلا الوفاء لك ولذا تراني معجلا بمفارقتك إلى البوادي حيث الأمن والحرية . » وذهب . وكان ذلك آخر عهدي به .

وتململ الشيخ مقصود في مجلسه ليتناول إبريق القهوة العربية وهو يقول : «أين ذلك مما نراه اليوم يا بني؟ » قلت : «تلك هي فضيلة الدين، وتلك هي قوة الايمان . »

ابن بطوطة

الرحالة العربي الشهير

بقلم الاستاذ محمد الهاشمى

عنى العرب فى القرون الوسطى بالاسفار والرحلات وارتياد المناطق لبعيدة واكتشاف مجاهل الطرق . وكانت عنايتهم بهذه الناحية شديدة جدا بحيث لا تقل عن الهمة التى بذلها رواد العصر الحاضر من الاوربيين ن وقفوا حياتهم على الاسفار ولا سيما إذا راعينا وفرة السبل وتنوع سائط النقل وقلة ما يتعرض له المسافر اليوم من مصاعب واخطار . وفى لحقيقة ان تلك العناية وهذه الهمة اللتين لمسنا آثارهما فى ثنايا التاريخ يستا بالامر الغريب نظرا الى طبائع العرب وجبلتهم التى اورثتها اياهم بيئة الصحراوية التى نشأوا فيها، فالعربى بحكم فطرته الاصلية ميال الى تنقل شغوف بالرحلة والتجوال . ولعل من الطريف ان نشير هنا الى ما هب اليه احد علماء فقه اللغة فى اشتقاق كلمة « عرب » فقد ذهب ذا الباحث الى انها محرفة عن كلمة « عبر » وذلك للدلالة على العبور التنقل وعدم الاستقرار فى مكان خاص .

لقد بدأ نشاط العرب فى الرحلات منذ اوائل القرن العاشر للميلاد دينا سجل ضخم باسماء الرجال الذين تركوا اوطانهم وساحوا فى رض فى حدود المملكة الاسلامية وفيما وراء حدود المملكة الاسلامية مما نوا يطلقون عليه اذ ذاك اسم (مملكة الكفار) وقد ترك لنا اولئك جال اسفارا قيمة دونوا فيها ما شاهدوه من العجائب والغرائب مما ن لهم من احوال الامم وتقاليدها وعاداتها المختلفة . ومن اقدم اولئك حالين أبو دلف واليعقوبى وقدامة والبلخى وابن حوقل وهؤلاء كلهم

من رجال القرن العاشر، ويلى هؤلاء طبقة اخرى منهم ياقوت الرومى وابو عبيد البكرى وابن جبير وابن سعيد وابن بطوطة وهذا الاخير من رجال القرن الرابع عشر للميلاد .

لم يكن هذا النشاط الذى بدأ ظهوره فى القرن العاشر نتيجة للمصادفة والاتفاق وانما هو وليد ظروف سياسية خاصة رافقت حياة العرب فى ذلك العصر فقد كان العالم العربى الاسلامى فى تلك الفترة بلغ غايته من التوسع وامتد حتى شمل اهم اقطار آسيا والساحل الشمالى لافريقيا وبعض اقسام اوربا، وهذا العالم الواسع مع تباعد اطرافه كان يموج بالاجناس والالوان والعصبيات المختلفة ولذا كان هم الخلفاء والولاة ومن بيدهم مقاليد الامور ان يوجدوا رابطة تجمع شمل هذه العناصر المتباعدة وتصل بعضها ببعض بحيث يمكن القضاء ولو على بعض الفروق وتخفيف حدة تلك العنعنات وتوجيه الناس الى غاية واحدة فرأوا فى الاسفار خير واسطة لربط تلك الاجزاء وانشاء صلات بينها، ثم ان هذه الاسفار تمكنهم من دراسة المناطق البعيدة دراسة نافعة تهىء لهم الطريق الى معالجة المشاكل التى تحدث فيها والتى يتعذر القضاء عليها بدون المام باحوال تلك البلاد . اضف الى ذلك ان العالم العربى الاسلامى كان يشعر بالرغبة فى التقارب بين اجزائه وكان كل فرد من افراد المملكة الاسلامية يحن الى الاتصال بالممالك البعيدة ويود من صميم القلب لو تعرف ما عليه اخوانه الذين تربطهم واياه روابط متينة، هذا الشعور الجمعى كان من جملة البواعث التى حركت فى الناس الرغبة فى السفر من حين الى آخر .

على ان هناك غير واحد من العلماء الذين ساقتهم غريزة حب الاستطلاع فطافوا فى العالم لمجرد الوقوف على احواله ودراسة شعوبه المختلفة منهم العلامة المسعودى صاحب كتاب «مروج الذهب» الذى ساح فى بلاد فارس والهند والصين وكان عمره اذ ذاك لم يتجاوز العشرين سنة . ومنهم الفيلسوف الفلكى البيرونى الذى توغل فى الهند وترك لنا كتابه القيم «تاريخ الهند» .



ى أوائل القرون الوسطى كان العرب سادة الدنيا فى علم الفلك والرياضيات، فى سنة ١١٥٤ حفر الادريسى مصورا للعالم على لوحة فضية . والمصور الأصلى . ضاع ولكن تبقت نسخ مهشمة منه تكاد تكون كاملة وهى محفوظة فى متاحف قاهرة وأكسفورد وغيرهما . وفوق قسم من النسخة المحفوظة بالقاهرة .

ويمكن ان يضاف الى ذلك الرحلات التجارية التى قام بها التجار هؤلاء وان لم يستهدفوا فى رحلاتهم درس البلاد التى وصلوا اليها الا هم افادوا علمى التاريخ والجغرافيا بتخطيطهم المدن وذكرهم عدد سكان والحاصلات والطرق التجارية . وهذا ما نلاحظه فى رسائل قوت صاحب كتاب «معجم الادباء» .

اما الرحلة لاداء فريضة الحج فهى ديدن اتقياء المسلمين فى جميع عصور وذلك لان الرغبة فى زيارة الاماكن المقدسة امنية كل مسلم جو الثواب فى الآخرة ولذا كان المسلمون فى كل عام يحجون فرادى فاعات الى الكعبة والى غيرها من الاماكن المقدسة كالقدس وقبور ئمة فى العراق وغيرها وهم فى طريقهم اليها يزورون البلاد ويتعرفون

ما عليه الناس وقد يمكث احدهم مدة طويلة من الزمن ثم يعود الى بلاده . والحقيقة ان الشرق الادنى كان فى العصور الوسطى هدفا لكثير من الزوار الذين كانوا يفدون اليه لا لغرض التبرك بالاماكن المقدسة فحسب بل لتلقى العلم والتزود من الثقافة . وكان معظم هؤلاء الوافدين من الاندلس ومن شمالى افريقيا حتى قال ابن خلدون «اهل المشرق على الجملة ارسخ فى صناعة تعليم العلم حتى ليظن الكثير من رحالى اهل المغرب الى المشرق فى طلب العلم ان عقولهم على الجملة اكمل من عقول اهل المغرب وانهم اشد نباهة واعظم كيسا بفطرتهم الاولى وان نفوسهم الناطقة اكمل بفطرتها من نفوس اهل المغرب ويعتقدون التفاوت بيننا وبينهم فى حقيقة الانسانية ويتشيعون لذلك ويولعون به لما يرون من كيسهم فى العلوم والصنائع» لكن يجب ان يعلم ان ما حدا بالناس الى الرحلة الى هذه المناطق لم يكن راجعا الى تمكن الناس هنا من لغة القرآن ومن الثقافة الاسلامية وحدها بل كان وراء لغة القرآن وعلوم الدين الثقافة اليونانية القديمة التى كانت قد انتشرت فى هذه المناطق قبل الاسلام .

وذلك يوم اخذت الكنيسة الشرقية تطارد العلماء وتعتبر فلسفتهم خطرا يتهدد المسيحية على نحو ما فعله جستنيان بمدارس اثينا فان اولئك العلماء الذين وسموهم بالوثنيين والزنادقة والذين اعتبروا كتبهم من نوع الهرطقة والالحاد لجأوا الى الشرق الادنى وتوطنوا فى سوريا والعراق واسسوا فيه عددا كثيرا من المدارس ولما فتح العرب هذه البلاد حافظوا على تلك المدارس وشجعوها لا سيما ايام المأمون الخليفة العباسى .

ولد ابن بطوطة فى مدينة طنجة عام ١٣٠٤م من اسرة دينية عريقة فى الاشتغال بالعلوم الشرعية وينتهى نسبها الى قبيلة لواتة احدى قبائل العرب التى كانت فى وقت ما فى بلاد برقة بين مصر وطرابلس . اما ثقافته فلم تكن تتجاوز العلوم الدينية والادب وممارسة بعض الشعر واللغة الفارسية ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره خرج فى وفد من الحاج الى

مكة ومنها قطع طريق البادية الى العراق وظل يتنقل فى بلاد العرب وفارس وتركيا والهند والصين زهاء ربع قرن وقد حج خلال هذه المدة اربع مرات وتزوج كثيرا من النساء . وفى سنة ١٣٤٩م عاد الى طنجة وكانت بلاد المغرب فى تلك الفترة تحت سلطان بنى مرين الذين كانوا يعطفون على العلماء والشعراء ويجزلون لهم العطاء فلاذ ابن بطوطة بأبى عنان امير مراكش وصار من جملة حاشيته وكان يقص فى مجالسه على الناس ما رآه فى اسفاره فطلب اليه الامير ان يدون رحلته فأملاها على كاتب الامير الفقيه محمد بن جزى الكلبى وانتهى من كتابتها سنة ١٣٥٣م وسماها « تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار » وعاش ابن بطوطة فى بلاد فاس حتى توفى سنة ١٣٧٧م .

يكاد يجمع المؤرخون على ان الدافع الذى حمل ابن بطوطة على القيام بهذه الرحلة هو الحج وانه لما وصل الى مكة والتقى بالحاج حصلت له فكرة الطواف حول العالم وهم يستدلون على ذلك بقوله « وكان خروجى من طنجة معتمدا حج بيت الله الحرام » ثم انه لم يكن متأهبا للسفر الطويل. بيد انه يلوح لى ان ابن بطوطة لم يكن يوم خروجه من طنجة بعيدا عن فكرة الطواف حول العالم ان لم تكن هذه الفكرة الهدف الرئيسى الذى كان يرمى اليه اولا . لاينكر ان الحج كان فى نظره غاية سامية باعتباره مسلما شديد الايمان والثقة بالله لكن لا مانع من ان يكون هذا الايمان البالغ المتمكن من نفسه بعض ما كان يرومه من تلك الرحلة والدليل على ذلك ما رواه ابن بطوطة نفسه فقد حدث انه نزل فى مصر ضيفا عند احد علماء الاسكندرية المسمى «برهان الدين» ثلاثة ايام فتوسم فيه برهان الدين حب التجوال واوصاه بانه اذا ذهب الى الهند او السند او الصين ان يزور افرادا سماهم له ثم ما رواه ابن بطوطة نفسه ايضا من انه زار وهو فى طريقه الى القاهرة احد الاولياء الصالحين الذى كان مقيما بقرية «قبالة» بلدة «فوه» على النيل فراى فى منامه وهو عنده انه زار مكة واليمن والعراق وبلاد الترك والهند . واما انه لم يتخذ الاهبة



قد وصلت إلينا نسخ عديدة من كتابات الادريسى العالم المشهور فى علم الجغرافية. وقد كتبها لملك صقلية المسيحى وهى تدل على الاهتمام العظيم الذى أولته أوربا إذ ذاك للعلم العربى . وفوق قسم من نسخة لأحد مصوراته محفوظة فى المكتبة البودلية بأكسفورد . وقد استعمل العرب الطرق الفلكية التى استمدوها من اليونان والهنود ثم أدخلوا عليها تحسينات لتحديد مواقع المدن .

الكافية لهذا السفر الطويل ففى الحقيقة ان ابن بطوطة لم يتأهب حتى بالنسبة الى الحج اذ كان جل اعتماده على الهبات والعطايا يوم فارق طنجة . ولعل عدم التأهب هذا يعتبر دليلا على انه كان ينوى السفر الطويل من اول الامر . اذ يتعذر على مثل ابن بطوطة الذى عرفنا

حاله من الفقر والفاقة ان يطوف حول العالم ويعد ما يكفيه من المال والزاد لمثل هذا السفر الطويل الشاق .

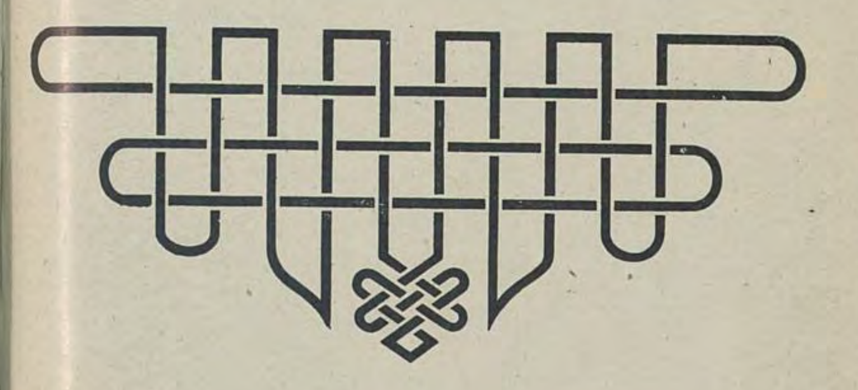
تعتبر رحلة ابن بطوطة من اهم المصادر التاريخية الجغرافية بالنسبة الى حياة الامم الشرقية فى القرون الوسطى، وهى ليست باول مشروع من نوعه فى هذا الصدد كما نعلم لقد قام «مركو بولو» الايطالى برحلة فى الشرق قبل «ابن بطوطة» بنصف قرن تقريبا ودون مشاهداته الا ان ابن بطوطة لم يطلع على تلك الرحلة . والذى يميز رحلة ابن بطوطة هو انها رسمت لنا صورة واضحة للشعوب التى كانت تتكلم فى ذلك الوقت اللغة الفارسية كايران والهند وذلك راجع الى تمكن ابن بطوطة من هذه اللغة فى حين ان رحلة «ماركو بولو» تمتاز بناحية اخرى وهى انها عرفتنا حالة الدول المغولية التى كانت تبسط نفوذها من شواطىء المحيط الهادىء الى ما وراء نهر الفولغا بشكل اوضح مما ذكره ابن بطوطة . وسبب ذلك راجع الى معرفة «ماركو بولو» اللغة المغولية الامر الذى ساعده مساعدة كلية على فهم حالة اولئك الاقوام . والحقيقة ان هاتين الرحلتين تعتبر احداهما مكملة للاخرى .

لقد قام ماركو بولو بمهمة خطيرة جدا فى تاريخ الروابط بين الشرق والغرب، وذلك لان الامم الاوربية لم تكن قد اتصلت بالشرق الا من طريق الاندلس وصقلية وسوريا والبلاد التى شهدت معامع الحروب الصليبية فقط . فلما رجع ماركو بولو الى اوربا كشف لهم عن اسرار الشرق وعرفه للعالم الاوربى تعريفا دقيقا . ولقد انجز ابن بطوطة هذه المهمة نفسها الا انه عرف الشرق بعضه ببعض . ومما يلفت النظر هنا هو ان هذين السائحين مزجا كثيرا من الحقائق التاريخية بالخرافات التى كانت شائعة فى تلك العصور . فدونا ما سمعاه من الاساطير والروايات كأنها امور حقيقية مسلم بصحتها، وهذا هو السبب فى انهما لقيا من علماء عصرهما بعض الانكار .

لقد أيد «فريسكوبالدى» الرحالة الايطالى الذى ساح فى الشرق

بعد ابن بطوطة باكثر من نصف قرن ما رواه ابن بطوطة فى رحلته ومع هذا يقول «ابن خلدون» :—

(ورد بالمغرب لعهد السلطان «أبى عنان» رجل من مشيخة طنجة يعرف «بابن بطوطة» كان رحل منذ عشرين سنة الى المشرق وتقلب فى بلاد العراق واليمن والهند وكان يحدث عن شأن رحلته وما رأى من العجائب، فتناجى الناس بتكذيبه .)



تعليم الانكليزية للكبار

الدرس الثانى

للدكتور م . د . النويهى

١ — الضمائر

I	(تنطق آیْ)	أنا
you	(تنطق يُو)	أنتَ، أنتِ
he	(تنطق هِى)	هو
she	(تنطق شِى)	هى
it		ضمير لغير العاقل
we	(تنطق وِى)	نحن
you		أنتم، أنتن
they	(بذال وألف ممالة تتلوها ياء)	هم، هن، (هى، جمع ضمير غير العاقل).

ـن هذا يتبين أن المثنى يعامل معاملة الجمع، أى كما يعامل فى اللغة العربية الدارجة . وأن الانكليزية لا تفرق بين المذكر والمؤنث إلا فى ـميرى الغائب والغائبة .

٢ — التعريف والتنكير

أداة التعريف الانكليزية هى the (تنطق ذى) وأداة التنكير هى ـ إذا ابتدأ الاسم بحرف صامت، و an إذا ابتدأ الاسم بحرف ـركة .

النملة	the ant	الرجل	the man
نملة	an ant	رجل	a man

٣ — الصفة

الصفة فى الانكليزية تسبق الموصوف، وإذا كان الموصوف معرفا سبقتها أداة التعريف، و إذا كان الموصوف منكرا سبقتها أداة التنكير .

the good man	الرجل الطيب
a good man	رجل طيب

والصفة فى الانكليزية لا تتغير إفرادا وجمعا أو تذكيرا وتأنيثا .

٤ — فعل الكينونة

اللغة العربية لا تحتاج إلى فعل كينونة حين يكون زمن الاخبار هو الحال . فيكفى أن تقول «البيت واسع» لتتكون جملة تامة . أما فى الانكليزية فلا بد أن تربط بين المبتدأ وخبره بفعل الكينونة، فتقول the house is big . والترجمة الحرفية : « البيت يكون واسع» . وهكذا تقول I am honest : «أنا أكون مخلص» أى «أنا مخلص» .

وواضح أن العربية تحتاج الى فعل الكينونة حين يكون زمن الاخبار هو الماضى . فتقول : البيت كان واسعا، أنا كنت مخلصا .

والتصريف الكامل لفعل الكينونة هو :

I am	we are
you are	you are
he / she / it } is	they are

وفى الزمن الماضى

I was	we were
you were	you were
he was	they were
she was	
it was	

٥ — ضمائر المِلْك

أو الضمائر فى حالة الاضافة . تعرفون أن «أنا» تتحول فى حالة الاضافة إلى ياء المتكلم، وأنت إلى الكاف، وهو إلى الهاء، وهكذا . فتقول كتابى ، كتابك، كتابه الخ . وكذلك فى الانكليزية تحول الضمائر السابقة الذكر إلى صيغ أخرى تسبق المملوك . فتقول، my book، your book، his book . و إليك التصريف الكامل لها :

my	our
your	your
his	their
her	
its	

٦ — إضافة الأسماء

فى العربية إذا كان المضاف إليه اسما (أى ليس ضميرا) فانه يكفى أن يتلو المضاف وتلحق آخره الحركة المناسبة للاضافة . فتقول « كتاب الرجلِ » . فالكسرة كافية للدلالة على أن الكتاب تابع للرجل أو مضاف إلى الرجل . ولكن لما كانت الانكليزية خالية من حركات الاعراب، فانه يجب أن يدل على الاضافة بكلمة مستقلة تسبق المضاف إليه وهى of (والفاء هنا تنطق كحرف v) ومعناها « تابع ». فتقول the book of the man . «الكتاب تابع الرجل » . وهذا يقابل تماما ما يقال فى العامية : «الكتاب بتاع الراجل » . أو «الكتاب تبع الرجل »، الخ .

وهناك طريقة أخرى للدلالة على الملكية، وهى أن تأتى بالاسم المالك أولا، وتلحق به s' أى حرف s مسبوقا بعلامة ' (apostrophé) ثم تأتى بالمملوك بعده. فتقول : the man's book .

٧ — الجمع

بالانكليزية طرق مختلفة لتكوين الجمع، ولكن يكفيك منها الآن أسهلها وأكثرها استعمالا، وهى مجرد إلحاق s بآخر المفرد فيصير جمعا. nation شعب . nations شعوب .

والآن قد تعلمت قدرا كافيا يمكنك من قراءة القطعة التالية وفهم أسلوبها إذا استعنت بترجمة المفردات الملحقة بها .

THE BRITISH NATION

The British nation is composed of the English, the Scots, the Welsh and the Irish. They are lovers of justice and peace and although their ideals were not always their practice, they always were, and are still, honest and honourable, the champions of the rights of man, of Democratic Government, and of goodwill between all nations of the world.

Their country, Britain, is beautiful, like a big garden alway green and fresh, for there is plenty of rain all the year. As there is sea all round the British Isles, the British are a nation of seamen as well as an industrial nation, and the sea is, as it always was, a strong influence on their national character.

London is the capital of Britain. It is a very big town, and its population is nearly ten million people. Situated on the banks of the River Thames, it is also one of the largest ports of the world. The seat of government of the British Empire is in London where the two houses of the British Parliament are, the House of Commons and the House of Lords.

The friendship between the British and the Arab world is deep-rooted and firm. Between the two there are long and intimate relations and historical connections. There are many interests in common between Britain and the Arab world besides their traditional friendship.

English is the language of most of the British Isles. It is a beautiful and rich tongue with a vast and varied literature. These lessons are a course of teaching by way of an introduction to this English language.

المفردات

Bri'-tish	بريطانى
na'-tion	أمّة (المقطع الأول كما لو كان nai والثانى شَنْ)
com-pos'ed (of)	مؤلّف (من) . متكوّن (من)
Eng'-lish	انكليز (حرف الحركة e ينطق كما لو كان i)
Scots	اسكتلنديون
Welsh	أهل ويلز
and	و
I'-rish	ايرلنديون (المقطع الأول ينطق أيْ)
lo'-ver (of)	محبّ (ل) . مشغوف (ب) (المقطع الأول ينطق lu)
jus'-tice	العدل (المقطع الثانى ينطق تِسْ)
peace	السلام (حرف c ينطق s وحرف e الأخير يهمل)
al-though'	برغم أن (حرف الحركة a ينطق o والمقطع الأخير ينطق tho)
i-de'-als	المثل العليا (i ينطق أَىْ . المقطعان الأخيران ينطقان دِيَلْز)
al'-ways	دائما (al تنطق ol)
prac'-tice	عمل . ممارسة (c الأولى تنطق كافا . المقطع الثانى ينطق تِسْ)
still	إلى الآن . لا يزال
ho'-nest	مخلص . أمين
ho'-nou-ra-ble	شريف (المقطع الثانى ينطق no والأخير بُلْ)
cham'-pions	أنصار
rights	حقوق (تنطق رَايْتْس)
man	الإنسان
De-moc-ra'-tic	ديموقراطى (حرفا c ينطقان كافا)
Go'-vern-ment	حكم . حكومة (o ينطق u . و e فى المقطع الثانى ينطق u)

good'-will'	روح الوئام . حسن النية
bet-ween'	بين
all	كل . جميع (a ينطق o)
world	الدنيا (o ينطق e)
coun'-try	وطن . بلاد (المقطع الأول ينطق كَنْ وحرف y هنا حرف حركة نظير i)
beau'-ti-ful	جميل (المقطع الأول ينطق يْيوُ)
like	مثل
big	كبير . ضخم
gar'-den	حديقة
green	أخضر
fresh	نضر
there	هناك
plen'-ty	وافر . وفرة
rain	المطر
year	سنة
as	إذ
sea	بحر
round	حول
Isles	جزائر (تنطق آيْلز)
sea'-men	بحّارة . ملاّحون
as well as	كما (أنهم) . مثلما (أنهم)
in-dus'-tri-al	صناعى
strong	قوىّ
in'-flu-ence	مؤثر . تأثير (المقطع الأخير ينطق اِنْسْ)
na'-tion-al	وطنى . قومى (المقطع الثانى ينطق شُنْ)

cha'-rac-ter	الشخصية . التكوين الخلقى (ch تنطق كافا وكذلك c فى المقطع الثانى)
Lon'-don	لندن (تنطق لَنْدَنْ)
ca'-pi-tal	عاصمة (c ينطق كافا)
ve'-ry	جدّا (y هنا حرف حركة نظير i)
town	مدينة
pop-u-la'-tion	سكّان . (المقطع الثانى ينطق يُو والثالث lai والرابع شَنْ)
near'-ly	تقريبا (y فى آخر الكلمة حرف حركة نظير i)
ten	عشرة
mill'-ion	مليون (المقطع الأخير ينطق yon)
peo'-ple	ناس (المقطع الأول ينطق پِى والثانى پُلْ)
sit'-u-a-ted (on)	واقعة (على) (المقطع الثانى ينطق يُو والثالث ai)
bank	ضفة . شاطئ
ri'-ver	نهر
Thames	التاميز
al'-so	أيضا (المقطع الأول ينطق ol)
one	واحد . واحدة (تنطق وَنْ)
lar'-gest	أكبر
port	ميناء
seat	مقرّ . مجلس
Em'-pire	امبراطورية
where	حيث (حرف الهاء ينطق قبل حرف الواو كما لو كانا hw)
two	اثنان (تنطق تُو)
house	دار . بيت (تنطق هَاوْس)
Par'-lia-ment	برلمان (المقطع الثانى ينطق la)

Com'-mons	العموم
Lords	اللوردات
friend'-ship	صداقة (المقطع الأول ينطق frend)
A'-rab	عربى
deep	عميق
deep-root'-ed	متأصل
firm	مكين . ثابت . راسخ (تنطق ferm)
long	طويل
in'-ti-mate	وثيق . صميم
re-la'-tion	علاقة (المقطع الأول ينطق ri والثانى lai والثالث شَنْ)
his-to'-ri-cal	تاريخى (c ينطق كافا)
con-nec'-tion	رابطة (c ينطق كافا والمقطع الأخير شَنْ)
ma'-ny	كثير (المقطع الأول ينطق me وحرف y حرف حركة نظير i)
in'-te-rests	مصالح . أغراض
com'-mon	عام . مشترك
in common	بالاشتراك . متشارك
be-sides	إلى جانب . بالاضافة إلى (المقطع الأول ينطق bi)
tra-di'-tion-al	تقليدى (المقطع الثالث ينطق شُنْ)
Eng'-lish	الانكليزية (حرف e ينطق i)
lang'-uage	لغة (المقطع الثانى ينطق وِدْچ)
most	مُعْظَم
rich	غنى
tongue	لسان (تنطق تَنْج بجيم غير معطشة)
with	بـ

شاسع . متسع	vast
متنوع (المقطع الأول ينطق vai والثانى rid)	va-ried
أدب (المقطعان الأخيران ينطقان رَتْ شَرْ)	li'-te-ra-ture
هؤلاء . هذه	these
درس	les'-son
منهج (تنطق cors)	course
تعليم . تدريس	teach'-ing
سبيل	way
على سبيل	by way of
مقدمة . تقديم (c ينطق كافا والمقطع الأخير ينطق شَنْ)	in-tro-duc'-tion
هذا . هذه	this

لا بد أنك لاحظت أن الانكليزية شديدة الشذوذ فى تهجئتها . فكثيرا جدا ما تكتب حروف وتنطق حروفا أخرى . يكتب e وينطق i ، ويكتب a وينطق o ، وهكذا . والحق أن هذا هو النقص الأعظم فى هذه اللغة . وهو العقبة العسيرة التى تواجه كل مبتدئ (حتى من الانكليز أنفسهم) . ولكن مع الصبر والجد والمران تذلل هذه العقبة ويصير الباقى سهلا نسبيا .

ولعلك قد لاحظت أيضا أننا تركنا لك أمورا معينة لتستنبطها أنت بنفسك . فاقرأ القطعة جيدا وحاول أن تستكشف منها شيئا عن تكوين الأسلوب الانكليزى وعن نواحى اختلافه عن الأسلوب العربى . ثم ترقب العدد القادم حيث سنعطيك ترجمة كاملة لهذه القطعة لتقارن بينها وبين محاولاتك .

وفقك الله .



كانت بداية هذا كله منذ ٣٠٠ سنة مضت

كان غاليليو قد خمّن أن للهواء وزنا. ولكن تلميذيه توريسيلى، وڤيڤيانى، هما اللذان برهنا على أن للجو ثقلا يكفى لحمل عمود من الزئبق طوله ثلاثون بوصة. ومما هو أشد اتصالا بالموضوع أنهما فى أثناء تلك البرهنة وقفا على الفراغ (أى استكشفا تفريغ مكان من الهواء) — وهو أمر لا يمكن من غيره أن يؤدى صمام المذياع عمله. وبذلك يمكن أن يقال أن هؤلاء الروّاد من علماء القرن السابع عشر قد مهدوا السبيل لعلم الإذاعة؛ وهو العلم الذى جعل اسم مولارد شهيرا فى جميع أنحاء العالم.

مولارد

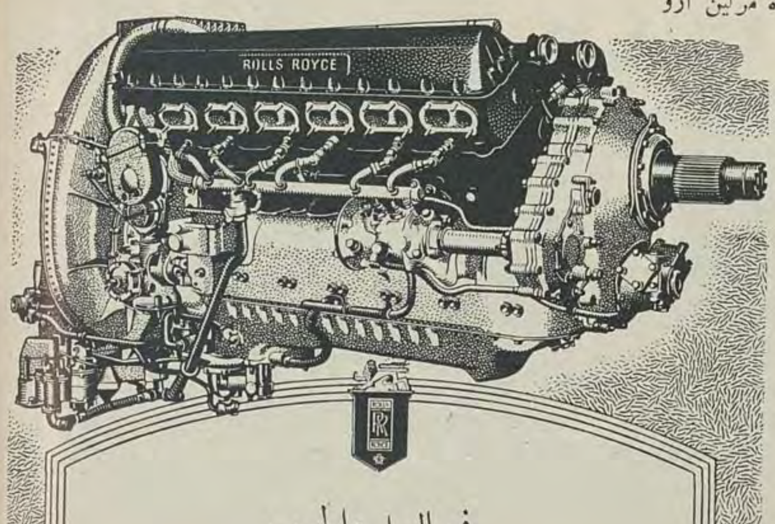
الاسم المسيطر فى ميدان الصمامات منذ ابتداء المذياع.

شركة مولارد للخدمة اللاسلكية لمتد.

سنشرى هاوس، شافتسبرى أڤنيو، لندن (W.C. 2).

MULLARD WIRELESS SERVICE Co., Ltd., Century House, Shaftesbury Avenue, LONDON, W.C. 2.

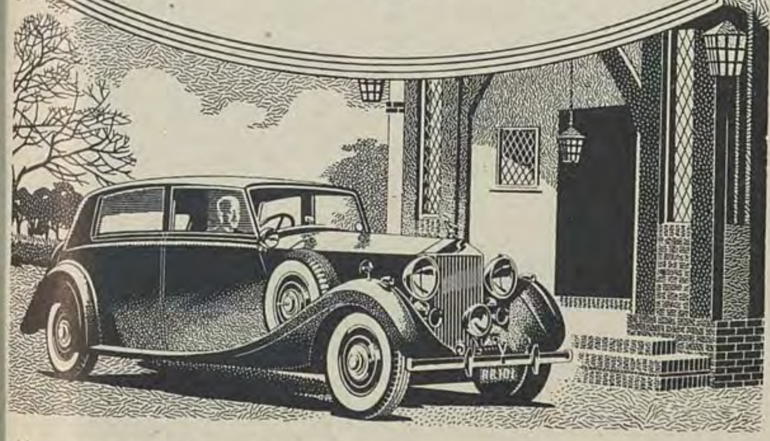
عدة مرلين آرو



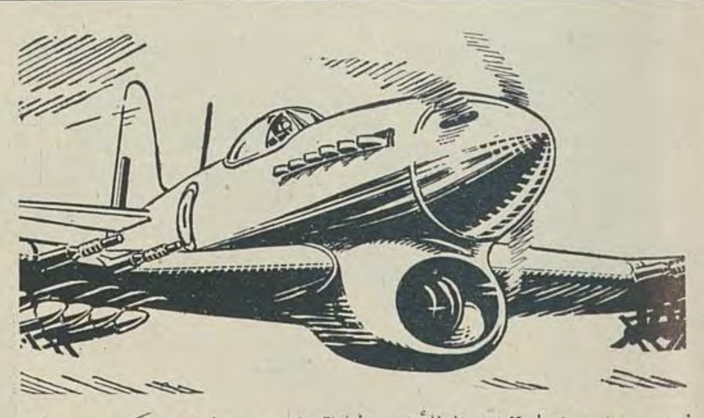
في السلم والحرب
فائقة على الطرق الأرضية
وفي المسالك الجوية

ROLLS-ROYCE

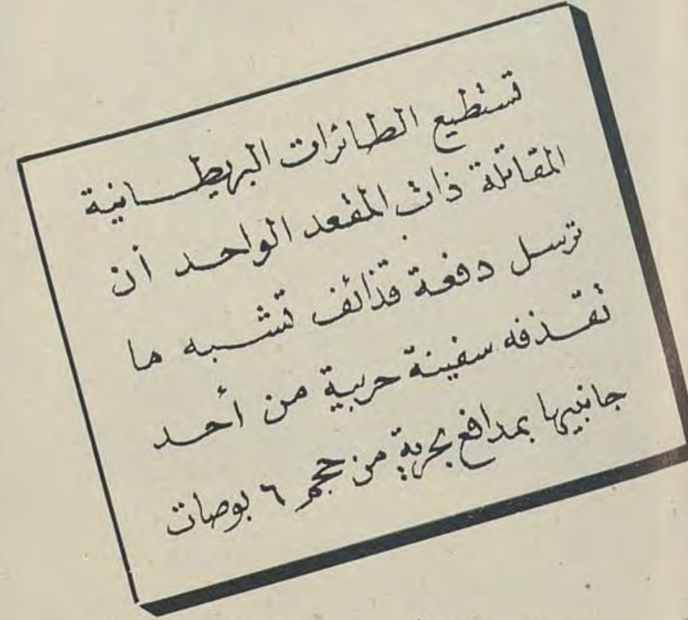
سيارات رُولز رُويس ومحركات الطائرات



سيارة طراز ريث قوة ٢٥-٣٠ حصانا .



في شهر واحد فقط قذفت الطائرات المقاتلة التى من طراز هوكر تيفون ذات المقعد الواحد (وذات محرك نابير سابر الذى قوته ٢،٢٠٠ حصان) قذفت هذه الطائرات ٢١،٠٠٠ قذيفة صاروخية على الوحدات الألمانية. وتستطيع طائرة تيفون أن تحمل ثمانية صواريخ تحت جناحيها. وتفوق سرعتها ٤٠٠ ميل فى الساعة.



الصناعة البريطانية للطائرات

بيان من جمعية بناة الطائرات البريطانية — لندن.

Announcement by the Society of British Aircraft Constructors—London.

RALEIGH

الدراجة المصنوعة كلها من الصلب





هذه الدراجة تولد
كهربائيتها من المحور

RALEIGH

شركة دراجات رالي ليمتد ، نوتنغهام ، انكلترة

RE 128A

EKCO

إكو

يبرز فى ثلاث صناعات حيوية

إن جهود إكو فى أثناء الحرب لفى الدرجة القصوى من الأهمية لأعمال الحلفاء. وسيستغل إكو ما اكتسبه فى أثناء الحرب من الخبرة فى سد مطالب المذياع التى يحتاج إليها العالم برمته، وفى أجهزة الإضاءة، وفى صناعة الباغات، وفى الأدوات الكهربائية المنزلية.

مذياع إكو

تقوم زعامة إكو على أساس وطيد فى كل ناحية من نواحى تطور المذياع — سواء فى ذلك الإذاعة المنزلية، أو الإذاعة التصويرية، أو المواصلات الأثيرية، أو علم الإلكترونات، الخ.

إضاءة إكو



إكو، فى عالم المصابيح، «اسم ملأ كل مكان». ومهندسو الإضاءة لإكو يلجأ إليهم لتقديم المساعدة فى كل فرع من فروع الصناعة.

باغات إكو



إكو اسم من أسماء المؤسسين فى هذه الصناعة السريعة النمو. ومكابس إكو — التى تشتمل على عدد من أضخم المكابس التى فى بريطانيا — تخرج من الباغات جميع الأصناف التى تستعمل فى الميادين التى مازالت تزداد اتساعا للصناعات.

E. K. COLE, LTD., SOUTHEND-ON-SEA, ENGLAND

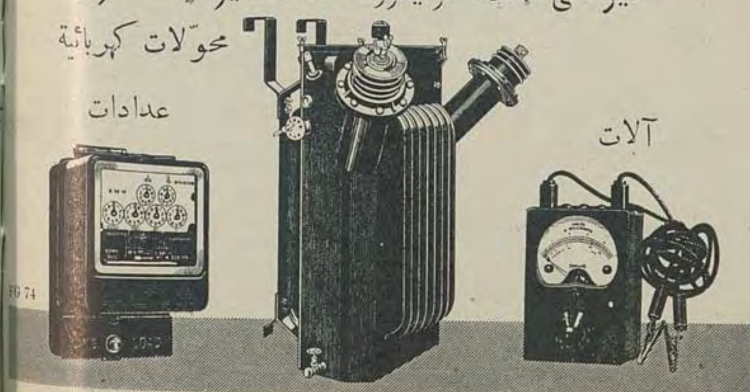


FERRANTI

منذ ستين سنة أقام فيرانتى أول محطة كهربائية ذات قوة وحدات عالية فى لندن ، مبتكرا أجهزة جديدة لسد جميع حاجات الإنتاج ونقل التيار واليوم توجه شركة فيرانتى ما اكتسبته من التجارب الواسعة إلى إنتاج محوّلات كهربائية ، وعدادات وآلات كهربائية — وهى مصنوعات تدل كفاءتها الحالية على ما بذلت الشركة فى ترقيتها وتقدمها فى خلال نصف قرن مضى. وهذه الأجهزة الإخصائية، ذات الكفاءة العليا، فى خدمتك.

FERRANTI Ltd., Hollinwood, Lancashire, ENGLAND.

فيرانتى لمتد . هولينوود ، لانكشير ، إنكلترة




ICI